



أفول الحضارة المعاصرة

رؤية مستقبلية بأقلام غربية

تأليف
د. عطية عدلان



أقوال الحضارة المعاصرة

رؤية مستقبلية بأقلام غربية



Ufûl El-Hadara
El-Mu'asira

Dr. Atia Adlan

1. Baskı: İstanbul
2024 - 1446





أفول الحضارة المعاصرة

رؤية مستقبلية بأقلام غربية



تأليف

د. عطية عدلان

مكتبة الأسرة العربية®

خيارك الأفضل للمعرفة الأصينة

أقوال الحضارة المعاصرة

رؤية مستقبلية بأقلام غربية

د. عطية عدلان

القياس: 14.5 X 21.5 سم

عدد الصفحات: 112 ص

ISBN: 978-625-6257-27-6

الطبعة الأولى

1446 هـ - 2024 م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مكتبة الأسرة العربية

خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

طباعة ونشر وتوزيع

إصدارات مختارة للأسرة العربية



www.arabfamilybs.com

+90 212 631 81 09 - +90 531 935 71 31

info@arabfamilybs.com

UFUK neşriyat.®

BASIN - YAYIN - DAĞITIM

Sertifika No: 65276

UFUK NEŞRİYATIN.®  BASIM YAYIN
MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Yılmaz Basımevi maltepe Mh. Litros Yolu 2. Matbaacılar Sıt, 2E1 İstanbul



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله .. والصلاة والسلام على رسول الله .. وبعد ..

«أفولُ الغرب».. «موتُ الغرب».. «انتحارُ الغرب»: ليست هذه تخرصاتٍ لحفنة من المنجمين، ولا فزاعاتٍ لأهل الغرب المترفين، ولا أمنياتٍ لأهل الشرق المعذبين، وإنما هي عناوين لكتب سَيَّارة، أَلَفَّها علماء ومفكرون ليسوا مُتَّهَمين في انتمائهم لحضارة الغرب ومَدَنِيَّتِهِ، وقد تناول مفكرون شريون هذا الأمر تناولا لا بأس به، من ذلك كتاب «أفول الغرب» للمفكر المغربي «حسن أوريد»، لكن يبقى أن شهادة مفكري الغرب أكثر موثوقية ومصداقية، فإذا كان المفكر الشرقي قد ناقش المسألة من خارج البيت الغربي، وانطلق في مناقشتها من الواقع العربي الذي ارتبط مصيره بالغرب؛ فإنه لن يكون مثل مفكري الغرب في غوصهم في نسيج الحياة الغربية؛ لاستكناه الأسباب العميقة وراء الانهيار الوشيك، وكيفيك لإدراك الفرق أن تقارن بين كتاب «أوريد» وكتاب «أوسفالد شبنغلر» الذي حمل نفس الاسم «أفول الغرب» وإن كان في الترجمة العربية قد حمل اسم: «تدهور الحضارة الغربية»، ففي هذا الكتاب - الذي عدّه النقاد أفضل كتاب نشر في النصف الأول من القرن العشرين - غاص المؤلف في أعماق الثقافة الغربية وكذلك الثقافات التي أثرت فيها؛ ليُخْرِجَ بالأسباب التي تحدث فيها بعد ذلك آخرون.

غير أنّ اعتمادنا في هذا الاستشراق على المفكرين الغربيين لا يصرفنا عن السنن الإلهية التي بينها الله تعالى في محكم كتابه، كسنة التداول: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وسنة التدافع: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وكذلك السنن التي تخص أهل الكتاب؛ إذ إنّ عامّة الغرب - برغم العلمنة والإلحاد - يعدون من أهل الكتاب في الجملة، وقد رأينا السنة الخاصة بهم عادت للعمل مع تفجر الحرب بين شرق أوروبا وغربها، قال تعالى: ﴿فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤]، ولعل ما أغفلنا عن هذه السنة هو نسياننا لتلك المآسي التي عاشتها أوروبا في تاريخها كله، ففي العصر الحديث فقط دارت رحى الحرب العالمية مرتين بين أقطاب أوربية، حصدت الملايين من أبناء البشر من قلب القارة الأوربية ذاتها، ممن لا ذنب لهم إلا أنّهم يعيشون تحت أنظمة نكدة قادت العالم - ولا تزال - إلى الدمار والخراب، هذا سوى حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣)، ومن قبلها حرب السنوات التسع (١٦٨٨-١٦٩٧)، ومن قبلهما حرب الثلاثين عاما (١٦١٨-١٦٤٨)، بخلاف الحروب الدينية البروتستانتية الكاثوليكية والحروب الأهلية إبان الثورات، وغير ذلك من الحروب التي دارت رحاها على الساحة الأوربية قبل غيرها.

وها هي المسيرة تعود من جديد بعد هدنة كانت خاتمة للحرب الباردة، وبغض النظر عمّا تبديه الأطراف المتصارعة من أسباب ظاهرة؛ فإنّ الثقافات



المختلفة والإرث الحضاري لكل طرف من أطراف الصراع هو الذي سوف يسعر الحرب في الفترة القادمة، كما تنبأ «صمويل هنتنجتون» في كتابه الشهير «صدام الحضارات» حيث قال بوضوح: «عالم ما بعد الحرب الباردة هو عالم مكون من سبع أو ثمان حضارات، والعوامل الثقافية المشتركة والاختلافات هي التي تشكل المصالح والخصومات»^(١).

فإذا وسَّعنا زاوية النظر قليلا للتاريخ الأوروبي والسلوك الغربي في العصر الحديث؛ فسوف تتجلى لنا سنّة أخرى يغفل عنها كثير من الناس، فقد سلك الغرب إِبّان نهضته سلوكا منحرفا يتنافى مع الإنسانية، وذلك عبر سلسلة من المجازر بدأت بالكشوف الجغرافية التي لم تكن في حقيقتها سوى حملات استعمارية، وانتهت بمأساة الإبادة الجماعية للهنود الحمر، ثم الاستعباد المهين لـ ٢١٠ ملايين من الأفارقة، وغير ذلك من المآسي، فأخذهم الله ببأساء الحربين الكُبريّين وضرائهما؛ لعلهم يتضرعون، فلما قست قلوبهم وزين لهم الشيطان غزو العالم الثالث؛ فتح الله عليهم أبواب كل شيء من معطيات الحضارة، فكان النصف الثاني من القرن العشرين عصر ازدهار ورفاهية إملاء وإمهالا، حتى إذا فرحوا بانتهاء التاريخ على شواطئهم جاءهم أخذ الله بغتة، وهذه الأحداث أول الأخذ، وفي هذا يقول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾^(٢) قَوْلًا إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْتَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا

(١) صدام الحضارات .. إعادة صنع النظام العالمي - صمويل هنتنجتون - ت: طلعت الشايب - ط

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٤]، ويقول عز وجل في سورة الأعراف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَلْنَا مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ بِالْحَسَنَةِ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَد مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥]، فهذان السياقان حكاية عن سنن جارية لا عن قصص منقضية.

وقد تنبأ «جورج فريدمان» بتجدد الصراع بين روسيا والغرب بعد عام ٢٠٢٠م، ولم يأت ذلك التوقع منه على وجه الخرص والتخمين، وإنما جاء مبنياً على استقراء تاريخ الصراع وقوانينه، فمن أهم القوانين التي أشار إليها أن الصراع إذا احتدم حول قضية متعلقة بالجيوسياسي، ثم أُغْلِقَ دون أن يُحْسَمَ؛ فإنه يوم أن تنتهي الظروف لِتَجَدُّدِهِ وإحيائه لن يتردد^(١).

وبحسب سنة التداول فإن هذا الذي يجري ليس غريباً ولا عجبياً؛ فهذه سنة إلهية ماضية، عبَّرَ عنها ابن خلدون بقوله: «إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم»^(٢)، ووردت في كتاب الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَّوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ونسأل الله تعالى في بداية هذا العمل أن يتم النعمة على الأمة الإسلامية، وأن

(١) ر: الأعوام المائة القادمة - جورج فريدمان - ترجمة منذر محمود محمد - دار الفرقد - دمشق -

ط أولى ٢٠١٩م ص ١٦٥ وما بعدها

(٢) مقدمة ابن خلدون - ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون - دار يعرب - دمشق - ط

أولى ٢٠٠٤م ص ٣٣٢



يمكن لها حسب وعده وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

لن نقف عند التقارير الاستشرافية عن الأفول، وإنما سوف نُركِّز على الأسباب العميقة لهذا الأفول المتوقع، عبر دراسة موضوعية نُعوِّل فيها على تقييمات عن أداء الحضارة الغربية، لمفكرين غربيين كبار، من هذه الأسباب: (التربة الفكرية المتناقضة - تراجع الديمقراطية - تدهور قيم الإنسانية - تغول الرأسمالية واستبدادها - انهيار البنى الأخلاقية - التفكك الأسري - العنصرية - صعود اليمين المتطرف - الأزمة الديموغرافية - المآزق الأبيستمولوجي - العدوان على البيئة - ترهل المارد العملاق) وغيرها، وسوف نركز على بعض هذه الأسباب وأهمها، والبحث يدور حول هذه العناصر الرئيسية الجامعة: (استبداد الرأسمالية وتراجع الديمقراطية - التربة الأيديولوجية النكدة - الانهيار الأخلاقي والإنساني والاجتماعي - أفول شمس القرن الأمريكي - المآزق الأبيستمولوجي).

وإذ نستشرف انهيار الغرب وقيام الإسلام؛ لا ننسى أن الشعوب الغربية نفسها وهي ترى الحضارة المعاصرة تتهاوى وتتلفت يمناً ويسرة ترقب المخلص الذي يلتقطها من هذه المضيعة ويقودها إلى حيث تدرك أمنها واستقرارها وسعادتها الحقيقية، وإلى حيث تجد الشيء الذي تبحث عنه في



قرارة ذاتها فلا تجده، وهو طمأنينة الإيمان، وإذا كانت أحداث غزة الأخيرة قد نتج عنها إلى الآن دمار كبير للديار وخراب عريض للعمران وقتل لآلاف الأبرياء من الأطفال والنساء؛ فإن ما تحقق بهذه الأحداث من انتصار على مستوى التدافع الفكري الحضاريّ بلغ مستوى الإنجاز الفارق الذي سيُبنى عليه الكثير من الوثبات في هذا الميدان؛ فلقد انكشف للناس كافة في كافة أنحاء العالم ولاسيما أوروبا والغرب أنّ الحضارة المعاصرة شر وبلاء، وأنّ الخير للناس أن تزول، وأنّ ما رأوه من مشاهد العظمة في نفوس الموحدين يبشر بمستقبل تجد فيه الإنسانية ما تتوق إليه، وإنّ غداً لناظره قريب.

وبذلك الذي قدمناه تتجلى لنا أهمية هذه الدراسة للمشروع الإسلاميّ؛ فهو مشروع في نهاية المطاف لا يعمل في أرض خالية ميتة، وإنّما لا بد من التدافع الحضاريّ الذي ينتج عنه إحلال حضارة تعود إلى الوجود محلّ حضارة تبيد من الوجود، فلا بد لشروق شمس الشرق الإسلاميّ من غروب شمس الغرب المسيحيّ اليهودي، ولا يتصور قيام الحضارتين في وقت واحد مع وجود ما بينهما من صراع عقديّ جذريّ، فحديثنا إذن عن أفول الحضارة المعاصرة هو في حقيقته جزء لا يتجزأ من حديثنا عن المشروع الإسلاميّ، وكم نحن بحاجة إلى حركة «استغراب»: تكون بمثابة قوة دفع تغذي الفتح الإسلاميّ المقدس، كما كانت حركة «الاستشراق» في السابق قوة دفع فكرية تغذي الإمبريالية الغربية المجرمة.

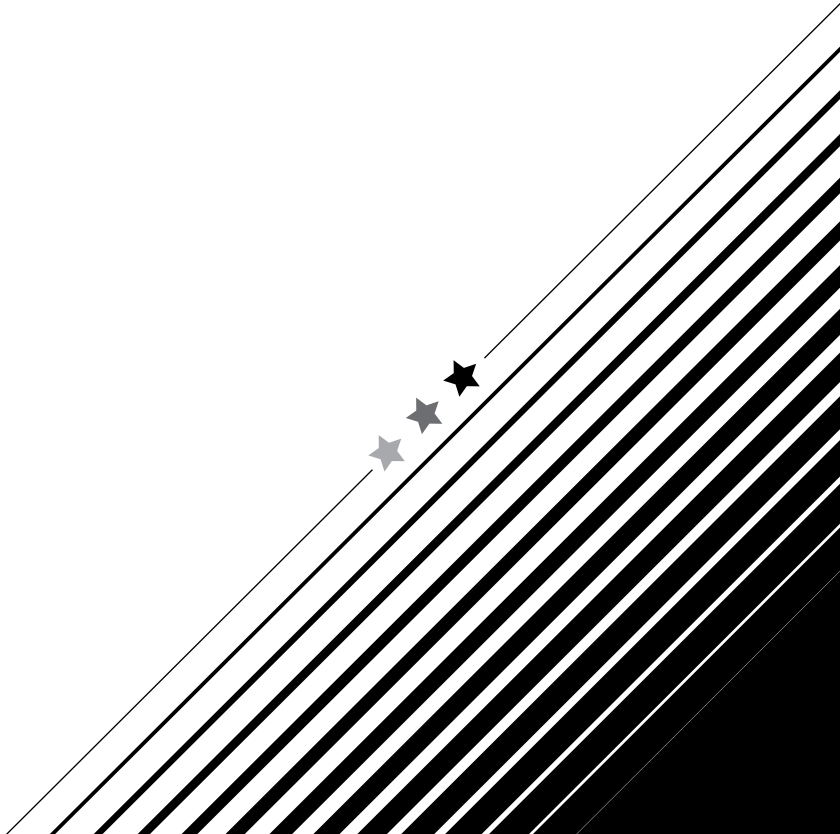


الفصل الأول



استبدال الرأسمالية وتراجع الديمقراطية







الفصل الأول

استبداد الرأسمالية وتراجع الديمقراطية

ذلكم هو السبب الأكبر والأخطر لما يسمى في الدراسات الاستشراافية بأفول الغرب وانتهاء هيمنته، لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو سؤال الارتباط؛ ما علاقة الرأسمالية بالديمقراطية؟ العلاقة بينهما بكل بساطة هي علاقة مصلحة، يغطي وجهها الباسر الكالـح بُرُقُعُ خَدَاغٍ، قُدَّ من الأصل الجامع لتلك النظريات وهو الليبرالية، فالديمقراطية تدعي أنّها تحقق الليبرالية في الميدان السياسي، والرأسمالية تزعم أنّها تسحب بساط الليبرالية في مساحة النشاط الاقتصادي، بينما الحقيقة أنّ التحالف القائم بينهما يقتات الابتزاز؛ عبر الإمبريالية الطاغية، لذلك فبقاء هذا التحالف مرهون بثقافة الابتزاز، وكما يقول «هارولد لاسكي»: «إنّ ما صار واضحًا فوق كل شيء آخر ... هو اعتماد الدول الديموقراطية على اقتصاديات التوسع؛ وبمجرد أن تصير هذه غير متيسرة فإنّ التناقض بين دلالات الرأسمالية ودلالات الديمقراطية يصبح مما لا يمكن التغلب عليه»^(١).

فدلالات الديمقراطية ذات أبعاد اجتماعية ومضامين تكافلية، أمّا الرأسمالية فليست كذلك، بل هي على النقيض من ذلك، وقد أدرك

(١) تأملات في ثورات العصر - هارولد لاسكي - ترجمة عبد الكريم أحمد - دار القلم القاهرة

المراقبون ذلك الانفصال الذي وقع بين المسارين، يقول «روبرت برنارد رايش»: «من بين جميع أمم العالم يُعْتَقَدُ أنَّ أمريكا هي خير مثال لفكرة أن الرأسمالية والديمقراطية تسيران جنبا إلى جنب، ولكن في السنوات التي انقضت منذ زيارة فريدمان لتشيلى أصبحت العلاقة متوترة بينهما؛ لقد انتصرت رأسمالية السوق الحرة بينما ضعفت الديمقراطية»^(١)، وعندما يقع هذا الانفصال ويصاحبه تحالف بين الرأسمالية والنظام الحاكم فإنَّ الضغط على الديمقراطية يكون قد بلغ منتهاه، وعلى حد وصف «ألان تورين»: «لقد سحقت كلُّ من الرأسمالية والدولة في اتحادهما الفاعلين الاجتماعيين والديمقراطيين بصورة عنيفة»^(٢)، إنَّه تحالف نكد وقع بين الرأسمالية والنظم الحاكمة على حساب المضامين الاجتماعية، التي قضت بها للديمقراطية النظرية الكينزية التي تعافى بها الغرب في أوائل القرن المنصرم.

والعجيب أن «ميلتون فريدمان» الذي يُعزَى إليه بناء مدرسة شيكاغو الأسوأ سمعة والتي أسست وأصلت ونظرت للنيلولبرالية، لا يستحي أن يعلن في كتابه «الحرية والرأسمالية» عن التحالف الجديد: «وبذا يتضح تمامًا أنه من الممكن أن تقوم نظم اقتصادية رأسمالية بالدرجة الأولى في ظل نظم سياسية غير حرة»^(٣)، بل إنَّه يناصر - بصراحة تشوبها وقاحة - المذهب

(١) الرأسمالية الطاغية - روبرت برنارد رايش - ت: علاء أحمد صلاح - الدار الدولية للاستثمارات

الثقافية - القاهرة - بدون - ص ٧

(٢) نقد الحداثة - ألان تورين - ترجمة أنور مغيث - المجلس الأعلى للثقافة - مصر - ١٩٩٧م ص ١٤٩

(٣) الرأسمالية والحرية - ميلتون فريدمان - ترجمة مروة شحاتة - كلمات العربية للترجمة والنشر -

ط أولى ٢٠١١م - ص ٣٢



الميكيفيللي، فيقول: «من الاعتراضات الشائعة على المجتمعات الشمولية أنّها تعتبر أنّ الغاية تبرر الوسيلة، ولكن إذا نظرنا إلى هذا الاعتراض حرفياً نرى أنّه مناف للمنطق بشكل واضح؛ فإذا لم تبرر الغاية الوسيلة فماذا يبررها؟!»^(١).

لم تجد الرأسمالية كبير عناء في الاستحواذ على السلطة، راكبة بذلك ظهر الديمقراطية؛ وما في ذلك من عَجَب، أليست الرأسمالية هي التي تدعم الأحزاب؟ وهي التي تمول الانتخابات؟ وهي التي تملك صياغة الرأي العام عن طريق أدوات الإعلام المؤثرة التي تحتكرها؟ فلتنعم هي بالديمقراطية، وليذهب أهل الكفاءة والثقة إلى الجحيم، فمن أراد أن يحكم فما عليه إلا أن يغتني، أليس ذلك هو التنافس الذي تتيحه الديمقراطية بعينه؟! يقول موريس دوفرجه: «ومهما يكن من أمر فإنّ النظريات الرأسمالية تؤكد أنّ تأثير المال أمر ديمقراطيّ في آخر تحليل؛ إذ إنّ جميع الناس يستطيعون في ظل نظام التنافس أن يحصلوا على الثراء وأن يمارسوا به تأثيراً سياسياً، فذلك معنى الكلمة التي قالها (غيزو) ردّاً على أولئك الذين كانوا يعيرون على الأغنياء أنّهم يحتكرون السلطة السياسية: «عليكم بالاغتناء»^(٢).

(١) الرأسمالية والحرية - ميلتون فريدمان - ترجمة مروة شحاتة - كلمات العربية للترجمة والنشر - ط أولى ٢٠١١م - ص ٤٧

(٢) مدخل إلى علم السياسة - موريس دوفرجه - ت: سامي الدروبي وجمال الأناسي - دار دمشق - القاهرة - بدون تاريخ - ص ١٧٤



وهي إذ تمارس طغيانها هذا تتذرع بالحرية، تلك التي صاغها آدم سميث وأصدقائه صياغة مادية، وجميعها فلسفات قامت على سحق الإنسان في مقابل نفخ حافظه النقود، فهي إذن خاطئة ومخطئة، يقول «مراد هوفمان»: «فنظراً لطبيعة الحياة الاقتصادية المتغيرة إذا قرأنا نظريات آدم سميث ودافيد ريكاردو وتوماس مالتوس وكاريل ماركس وجون كينز وبول ساملسون؛ سنكتشف أننا نقرأ تاريخ الأخطاء الاقتصادية وليس تاريخ الاقتصاد»^(١)، وكيف لا نُخَطِّئ «مالتوس» وقد أثمرت نظريته مآسي وآلاماً للإنسانية؛ بزعم أن «الندرة» هي التهديد الحقيقي لحياة البشرية!؟

وعلى أثر تحالف الرأسمالية المalthوسية البنتامية مع النظم الحاكمة وقعت البشرية في المجاعات، ليس لأنَّ الندرة حلت بهم، ولكن لأنَّ الرأسمالية النيوليبرالية أرادت تحرير الأسواق وتحرير رأس المال من قيود المسؤولية الاجتماعية والأخلاقية، يقول مؤلفا كتاب «خرافة الندرة»: «منذ بداية السبعينيات أوحى نظرية الندرة إلى زعماء أمريكا بخطة تمكنهم من مزيد من السيطرة؛ فأخرجوا عن دائرة إنتاج القمح ملايين الأفدنة، كانت تكفي في بعض الأوقات لِضِعْفِ ما تستورده الدول النامية، وتحت ضغط شبح الندرة وأمام إغراء خفض سعر الدولار وقعت أغلب دول العالم في فخ الهيمنة، وما كان هناك شيء اسمه ندرة إنما كانت خرافة وأكذوبة»^(٢).

(١) الإسلام كبديل - د. مراد هوفمان - ترجمة: عادل المعلم - دار الشروق - القاهرة - ط أولى ١٩٩٧م ص ٩٤

(٢) ر: صناعة الجوع «خرافة الندرة» - تأليف: فرنسيس مورلايه و جوزيف كولينز - ترجمة: أحمد إحسان - عالم المعرفة رقم ٦٤ ط ١٩٨٣م - ص ٥٣-٥٤



لقد نجحت الرأسمالية في الانحراف بالحرية التي هي روح الديمقراطية ولبها، فالحرية هي حرية الرأسمالي في امتصاص دماء الشعوب باسم الاستثمار، أمّا ما عدا ذلك فليس له وجود، اللهم إلا في صورة الحريات الشخصية التي تعني التفسخ والانحلال الأخلاقي، يقول دوفرجه: «إنّ المشاريع الحرة ليست هي الحرية؛ أولاً لأنّها تقوم على المال، صحيح أنّ كل إنسان يستطيع أن ينشئ جريدة، هذا من ناحية الحقّ، أمّا من ناحية الواقع فلا بدّ أن يملك المرء حوالي ثلاثة مليارات فرنك قديم حتى يستطيع أن ينشئ جريدة يومية بباريس، وفي وسع المرء أن يكتب ما يشاء في جريدة من الجرائد الصادرة، ولكن على شرط ألا يعترض مجلس الإدارة أصحاب المشروع، إنّ وسائل الإعلام حرة إزاء الدولة، لكنّها ليست حرة إزاء المال، إنّ سلطة الإعلام في قبضة سلطة الاقتصاد، صحيح أنّ الأحزاب الشعبية الكبيرة ونقابات العمال القوية تستطيع أن تجمع رؤوس الأموال اللازمة لإنشاء جريدة، وحتى لإنشاء محطة إذاعية، ولكن التجربة تدل على أنّها تعجز عن الاستمرار في إمداد مثل هذه المشاريع بأسباب الحياة ... إنّ أخطر ما في وسائل الإعلام أنّها أداة للاسترباح حيث يحمل عليها الدعايات للمنتجات التي يراد تسويقها؛ لذلك يسيطر عليها هم الوصول إلى أكبر عدد ممكن من الجمهور، ومن ثمّ فهي تُعنى بما يجذب الجمهور لا بما يفيدها وينفعها ويصلحها، فهي تلعب على مشاعرهم لا على عقولهم، وتجاريتهم فيما يرغبون لا تجاريتهم بما يجب أن يدركوه، وتهرب دائماً من كل ما يزعجهم وإن كان حقاً ... إنّ وسائل الإعلام الرأسمالي تقوم بدور هو



عكس الدور الذي توجهه المصلحة العامة... نظام الإعلام الرأسمالي يؤدي إلى ما يمكن أن نسميه تبليه الجمهور^(١).

أما المؤسسات المالية الدولية فليست سوى أدوات لتكبير الحكومات الديمقراطية وغير الديمقراطية بقيود الرأسمالية القاسية، ويضرب «هوريست أفهيلد» مثلاً على ذلك فيقول: «فالاتفاقيات المبرمة في رحاب منظمة التجارة العالمية جردت أصحاب القرار السياسي من أي إمكانية للتراجع ولو جزئياً عن الانفتاح الاقتصادي، وكانت ماريا ميس على حق حين أشارت إلى أنّ المسؤولين السياسيين يكبلون أيديهم بأنفسهم حين يصادقون بملاء إرادتهم على اتفاقيات تسلبهم القدرة على اتخاذ القرارات، وتجبرهم على ترك اتخاذ هذه القرارات للأسواق... فهذه الاتفاقيات تجيز للشركات الأمامية مطالبة الحكومات بدفع تعويض مالي لها جزاء كل خلل يطرأ على نشاطاتها، حتى إن كان هذا الخلل قد تأتي من الإضرابات العمالية المشروعة دستوريا^(٢).

شيئاً فشيئاً تحولت أنظمة الحكم في أعتى الديمقراطيات خادمة للرأسمالية، تقول «نورينا هيرتس»: «إنّ عالماً فيه رئيس أمريكي يصدر القانون تلو القانون المحابي لمصالح الشركات الكبرى، ولروبرت ميردوخ سلطان أقوى من سلطان توني بلير، وتضع الشركات الكبرى فيه الأجندة

(١) ر: مدخل إلى علم السياسة - موريس دوفرجيه - ت: سامي الدروبي وجمال الأتاسي - دار

دمشق - القاهرة - بدون تاريخ - ص ١٧٨ - ١٨٠

(٢) اقتصاد يغدق فقرا - هورست أفهيلد - ترجمة د. عدنان عباس علي - عالم المعرفة ٣٣٥ -

الكويت - ط ٢٠٠٧م ص ١٤٤ - ١٤٥





السياسية، إنما هو عالم مخيف وغير ديمقراطي، وقد تبدو فيه فكرة أخذ الشركات الكبرى دور الحكومة سائغة من بعض الجوانب»^(١)، بل وصل الأمر إلى حدّ صناعة الرؤساء عن طريق ضخ الأموال، وكان أظهر وأبرز مثال على ذلك ما ذكرته غرين بالاست في كتابها الشهير «أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها» فقالت: «ربما خسر جورج دبليو بوش في صندوق الانتخابات ولكنه ربح فيما يمكن الاعتماد عليه ... سار الابن المحظوظ مباشرة نحو البيت الأبيض على خنزير محشو بما يقارب نصف مليار دولار ... إنهم يدعونها انتخابات ولكن يبدو لي أنّها أكثر شبها بالمزاد»^(٢)، وفي موضع آخر أضافت: «في تشرين الثاني من العام ١٩٩٩م دفعت شركة (جي تك) ٣٠٠,٠٠٠ دولار لليتين وبالمقابل وافق ليتوين على إنهاء القضية المتعلقة بتدخل عائلة بوش في مسألتي اليانصيب والحرس الجوي إلى الأبد» وهي العملية التي تخلص بها جورش بوش عندما كان طيارا من المشاركة بالحرب الفيتنامية»^(٣).

ولقد وقع بسبب تغول الرأسمالية تباينٌ شديدٌ بين الأغنياء المترفين والفقراء المطحونين، بلغ الأمر إلى حدّ ما ذكره «بيل كلنتون» في كتابه «رؤية

(١) السيطرة الصامتة - الرأسمالية العالمية وموت الديمقراطية - نورينا هيرتس - ترجمة صديقي خطاب - عالم المعرفة عدد ٣٣٦ - ط ٢٠٠٧م ص ١٩

(٢) أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها - غرين بالاست - الدار العربية للعلوم - ترجمة مركز التعريب والبرمجة - ط أولى ٢٠٠٤م - ص ٩١

(٣) أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها - غرين بالاست - الدار العربية للعلوم - ترجمة مركز التعريب والبرمجة - ط أولى ٢٠٠٤م - ص ١٠٨

لتغيير أمريكا): «خلال عقد الثمانينات حصل الواحد بالمائة الأكثر ثراء من الأمريكيين على ٧٠٪ من إيرادات الدخل»^(١)، أمّا «توماس بيكيتي» فكان أحدث وأشهر من رصد التباين الفاحش والعدوان الشديد الذي تمارسه الرأسمالية، وأنقل بعض أقواله المتفرقة، يقول في كتابه «رأس المال في القرن الحادي والعشرين»: «يتقاضى الموظف المتوسط في شركة «وولمارت» أقل من ٢٥٠٠٠ \$ في السنة، في حين أنّ مايكل ديوك رئيس تلك الشركة حصل على أكثر من ٢٣ مليون دولار في ٢٠١٢م، كما أنّه في ٢٠١١م حصل تيم كوك من شركة أبل ٣٧٨ مليون دولار في شكل مرتب وأسهام ومزايا أخرى، حيث كان ذلك الرقم يعادل ٦٢٥٨ ضعفَ متوسطِ راتب الموظف في أبل، وهذا الاتجاه يوجد في كل مكان في العالم في عالم الأعمال... بدأت اللامساواة في الازدياد؛ عندما قام رونالد ريجان ومرجريت تاتشر بخفض الضرائب على الأغنياء، وتدمير اتحادات العمال، ووضع قيود على نمو الإنفاق الحكومي... تدخل الدولة هو الوسيلة الوحيدة لخفض مستوى اللامساواة في الدخل والثروة... عندما يزيد العائد على رأس المال بشكل كبير عن معدل النمو الاقتصادي ينتج عن ذلك اتساع في فجوة توزيع الدخل، ليس هناك قوانين أولية تؤكد لنا أنّ النمو سوف يتعادل بشكل تلقائي، لا يمكن لتوزيع الدخل أن يختزل في آلية اقتصادية فقط، انعدام المساواة في الثروة يشكلها عوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية... ليس هناك عملية طبيعية لمنع العوامل التي تدفع الثروة للنمو بشكل دائم، إنّ القوى التي خلف انعدام العدالة تتحكم في

(١) رؤية لتغيير أمريكا - بيل كلنتون - ص ٩



العالم ... في عهد الرئيس الأمريكي هربرت هوفر الذي عايش فترة الكساد العظيم في أواخر العقد الثالث من القرن المنصرم خرج الفكاهي الأمريكي ويل روجرز ساخراً من جهود هوفر للإنعاش، فقال عبارته الشهيرة التي لم يكن يريد بها سوى إضحاك الجماهير: «تم تخصيص كل الأموال للطبقات الغنية، على أمل أن تناسب إلى المحتاجين»^(١).

ولقد بلغت الآثار تخوم الإنسانية ذاتها، أي إنسانية الإنسان، يقول مؤلفا كتاب «الأناركية والثورة والإنسان»: «وحيث يجادل أنثروبولوجيون مثل جوناثان فريدمان بأنّ العبودية العتيقة كانت في الحقيقة مجرد طبعة أقدم من الرأسمالية؛ يمكننا نحن بنفس السهولة بل بسهولة أكبر بكثير في الحقيقة أن نجادل بأنّ الرأسمالية الحديثة هي في الحقيقة طبعة أحدث من العبودية»^(٢)، وفي موضع آخر: «هذا التسليع يتخلل ليس فقط ما نأكله أو نلبسه أو نفعله للتسلية، بل كذلك لغتنا وعلاقاتنا، وحتى ذات تركيبنا البيولوجي وعقولنا، لقد فقدنا ليس فقط مجتمعاتنا المحلية وفضاءاتنا العامّة، بل كذلك السيطرة على حيواتنا الخاصة، فقدنا القدرة على تعريف أنفسنا خارج قبضة الرأسمالية»^(٣).

- (١) ر: رأس المال في القرن الحادي والعشرين - توماس بيكيتي - ت محمود الشاذلي - دار الثقافة الجديدة - القاهرة - ط ١ ٢٠١٥ م ص ٢٨-٤٢
- (٢) الأناركية والثورة والإنسان - سيندي ميلستين وديفيد جريير - ترجمة أحمد حسان - مركز المحروسة - مصر - ط أولى ٢٠١٦ م ص ٢٠٢
- (٣) الأناركية والثورة والإنسان - سيندي ميلستين وديفيد جريير - ترجمة أحمد حسان - مركز المحروسة - مصر - ط أولى ٢٠١٦ م ص ٢٠٤



أما العولمة فليست سوى مَرَكِبٍ لنقل السلع إلى المستهلكين المطحونين، وضخ الأموال الراجعة إلى الرأسماليين، وفرض الهيمنة الرأسمالية النيوليبرالية، ففي الكتاب ذاته المشار إليه آنفا: «أكثر فأكثر أخذ النشطاء يحاولون لفت الانتباه إلى حقيقة أن الرؤية النيوليبرالية للعولمة محدودة إلى حد بعيد بحركة رأس المال والبضائع، وتزيد فعلا الحواجز أمام التدفق الحر للبشر والمعلومات والأفكار، وقد تضاعف حجم حرس حدود الولايات المتحدة الأمريكية ثلاث مرات تقريبا منذ التوقيع على اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (نافتا)، وهذا ليس مدهشا على الإطلاق؛ إذ لو لم يكن ممكناً أن تسجن فعليا أغلبية الناس في العالم في معازل بائسة فلن يكون ثمة حافز لدى شركة Nike أو The Gap لنقل الإنتاج هناك بادئ ذي بدء، مع إتاحة حرية الأشخاص سينهار مجمل المشروع النيوليبرالي ... فالإنجاز الأساسي للدولة/ الأمة خلال القرن الماضي كان تأسيس منظومة متجانسة من الحواجز ذات الحراسة المشددة حول العالم»^(١)، وفي الكتاب الشهير «فخ العولمة»، يقول المؤلفان: «حيثما تجري المتاجرة بالبضائع والخدمات عبر الحدود الدولية بكل حرية؛ تعصف بالعمال - بلا هوادة على ما يبدو - زوبعة هوجاء تتمثل في فقدان العمل البشري لقيمته، وفي ترشيد يقضي على فرص العمل»^(٢).

(١) الأناكسية والثورة والإنسان - سيندي ميلستين وديفيد جريبر - ترجمة أحمد حسان - مركز

المحرسة - مصر - ط أولى ٢٠١٦ م ص ١٠-١١

(٢) فخ العولمة .. الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية - تأليف: (هانس بيتر مارتين ، هارالد

شومان) - ترجمة: د. عدنان عباس علي - كتاب «عالم المعرفة» عدد ٢٣٨ سنة ١٩٩٠ م ص ١٦٨



لقد أدى هذا التغول من الرأسمالية على الديمقراطية إلى أنها صارت في عقر دارها مسألة شكلية يسيطر عليها أوليغاركيات منتفعة، حتى لقد قال الفيلسوف «جون ديوي» الشهير: «إن الديمقراطية ليست سوى حيلة عددية قامت على أكتاف أحزاب متغيرة تصادف أن نال أفرادها أغلبية الأصوات في وقت معين»^(١)، وهذه الأصوات جاءت بفعل الآلة الإعلامية الجبارة التي تملكها وتسيطر عليها الرأسمالية، والجمهور - حسبما قرر غوستاف لوبون - في «سيكولوجية الجماهير» تفتنه: «الصور والكلمات والخطب والشعارات والأوهام والإلحاح»^(٢)، فهو المركب الذلول الذي تمتطيه الأوليغارشية؛ لتصل إلى غاياتها، وما أشد دناءة غايات الأوليغارشيات، تلك الطبقة النفعية المتعالية بمالها.

وربما يصح القول بأن إدراك الناس لهذه العلة المستديمة هو الذي دفعهم للتصويت الانفعالي والتصويت العقابي، وصارت العملية التصويتية كما قرر «ألان تورين» عندما قال: «استنتج عدد كبير من مراقبي الحياة السياسية أن الانتخابات تظهر تعبيراً عن الرفض السياسي بدلا من الإيثار السياسي»^(٣)، ولقد تنبه بعض المفكرين إلى الداء الكامن في الديمقراطية، وهو أنها مع سيطرة رأس المال يصعد على أكتافها أشخاص لا يصلحون، يقول «مراد هوفمان»:

(١) الحرية والثقافة - جون ديوي - ترجمة أمين مرسي قنديل - مطبعة التحرير - مصر - ط ٢٠٠٣ م ص ١٥٨

(٢) راجع للمزيد: سيكولوجية الجماهير - غوستاف لوبون - ترجمة هاشم صالح - دار الساقى - ط أولى ١٩٩١ م ص ١١٥-١٢٦

(٣) ما الديمقراطية؟ - ألان تورين - ترجمة عبود كاسوحة - منشورات وزارة الثقافة - سوريا - دمشق - ط ٢٠٠٠ م ص ١٩٨



«اتجه المسيحيون بعد عدة قرون للديمقراطية؛ حتى أصبح كل المطلوب عدد الأصوات؛ الذي يكفل اختيار وكيل عريف سابق (هتلر مثلا) أو ممثل سابق (ريجان مثلا) أو رئيس مخبرات سابق (بوش مثلا) رئيسا للدولة؛ مثلهم في ذلك مثل أستاذ جامعي محترم متخصص في العلوم السياسية»^(١)، ويقرر فريد زكريا في كتابه الأشهر «مستقبل الحرية» أنّ الطريق الملتوي يتمثل في صعود دكتاتوريات على أكتاف ديمقراطية وانتخابات صحيحة»^(٢).

لقد أوحى هذا الوضع لكثير من النقاد الغربيين فدفعهم إلى مزيد من المراجعات التي ذهبت إلى أعماق فكرة الديمقراطية، وهذه قطوف من أقوال بعضهم: «فالديمقراطية التي أصيبت بالضعف على هذا النحو يمكن تدميرها، إمّا من فوق على يد سلطة مستبدّة، وإمّا من تحت عن طريق الفوضى والعنف والحرب الأهلية، وإمّا انطلاقا من ذاتها عن طريق المراقبة التي تمارسها على السلطة كل من الأوليغارشيات (أنظمة حكم القلّة) أو الأحزاب التي تقوم بتكديس الوسائل السياسية أو الاقتصادية؛ لتفرض اختيارها على مواطنين تحولوا إلى ناخبين ليس إلا»^(٣)، «لا ينبغي للديموقراطيين على وجه الخصوص أن يكونوا بحاجة إلى من يذكرهم بأنّ الديموقراطية ذاتها قد رفضت من قبل نقادها؛ ليس باعتبارها ظاهرة لا تخلو

(١) الإسلام كبديل - د. مراد هوفمان - ترجمة: عادل المعلم - دار الشروق - القاهرة - ط أولى

١٩٩٧م ص ٨٨

(٢) ر: مستقبل الحرية (الديمقراطية الضيقة الآفاق في الداخل والخارج) - فريد زكريا - ت فادي

أديب - ط أولى - دار مجالات - بيروت - ص ٦٦-٦٩

(٣) ر: ما الديمقراطية؟ - ألان تورين - ترجمة عبود كاسوحة - منشورات وزارة الثقافة - سوريا -

دمشق - ط ٢٠٠٠م ص ١٣



من سخف وحسب، بل لأنها بالإضافة إلى ذلك أبعد ما تكون عن الواقعية، وفي الواقع إنّه: لأكثر من قرنين بقليل كان من المحتمل أن يقول القسم الأكبر من الديمقراطيين - وقد قالها الكثيرون منهم فعلا - إنَّ تطبيق الديمقراطية على الدولة القومية أمر مستحيل»^(١).

«لم تكن فكرة التمثيل في الواقع العمليّ وليدة فكر الديمقراطيين بل إنَّها نمت باعتبارها مؤسسة من مؤسسات الحكم الملكيّ والأرسطراطيّ، ومن الممكن العثور على بداياتها، خاصة في إنجلترا والسويد، في المجالس التي كان الملوك وكذلك النبلاء في بعض الأحيان يجمعونها لمعالجة قضايا الدولة الهامّة، كالواردات والحروب ووراثة العرش وإلى غير ذلك من الأمور، ... وكان ممثلو كل طبقة يجتمعون بعضهم البعض الآخر ... وبمرور الوقت تقلص عدد هذه الطبقات ليصبح طبقتين: اللوردات والعامّة»^(٢)، «كل دولة هي دولة أوليغارشية، ويتفق مع هذا عن طيب خاطر مُنظر التعارض بين الديمقراطية والشمولية: «لا يمكن تصور نظام لا يكون بمعنى معين أوليغارشيا» لكن الأوليغارشية تفتح للديمقراطية مكاناً بدرجة أو بأخرى ... وعادة ما نأخذ وجود نسق تمثيليّ باعتباره الملائم للديمقراطية، لكن هذا النسق هو ذاته حل وسط غير مستقر»^(٣).

(١) ر: الديمقراطية ونقادها - روبرت دال - ترجمة نمير عباس مظفر - دار الفارس - عمان الأردن - ط ٢٠٠٥ م ص ٥٥

(٢) ر: الديمقراطية ونقادها - روبرت دال - ترجمة نمير عباس مظفر - دار الفارس - عمان الأردن - ط ٢٠٠٥ م ص ٥٦-٥٧

(٣) ر: كراهية الديمقراطية - جاك رانسبير - ترجمة أحمد حسان - دار التنوير القاهرة بيروت تونس - ط أولى ٢٠١٢ م - ص ٨٩ - ٩٠



«كلمة الديمقراطية إذن لا تحدد بشكل دقيق لا شكلاً للمجتمع ولا شكلاً للحكم، المجتمع الديمقراطي ليس أبداً سوى رسم (فتازي) موجه إلى دعم هذا المبدأ أو ذاك للحكم الرشيد، والمجتمعات اليوم مثل أمس ينظمها تلاعب الأوليغاركيات، وليس ثمة حكم ديمقراطي بالمعنى المحدد، وأشكال الحكم تمارس دومًا من الأقلية على الأغلبية... لم يكن التمثيل أبداً نسقاً تم اختراعه لمواجهة النمو السكاني، لم يكن شكلاً لتوافق الديمقراطية مع العصور الحديثة ومع الفضاءات الشاسعة، إنه بحق شكل أوليغاركي... تمثيل لأوليغاركيات تتمتع بلقب يتيح لها تولي الشؤون المشتركة... كما أن الانتخاب ليس في ذاته شكلاً ديمقراطياً من خلاله يجعل الشعب صوته مسموعاً، إنه في الأصل التعبير بقبول تطلبه سلطة عليا»^(١).

فإذا كان هذا هو مصير الديمقراطية، ومصير التحالف المزعوم بينها وبين الرأسمالية النيوليبرالية، وإذا كانت المؤشرات تؤكد أن هذا المصير لا فكاك منه، وأنه لم يعد بالإمكان ردّ عادية الرأسمالية؛ فلا ريب أن هذا سيكون سبباً مؤكداً لما يسمى في الدراسات الاستشراعية الغربية «أفول الغرب»، وهذا الكلام لم نأت به من أكياس شرقية، وإنما أتينا به من أرضه التي أنتجته، والحق ما شهدت به الأعداء.

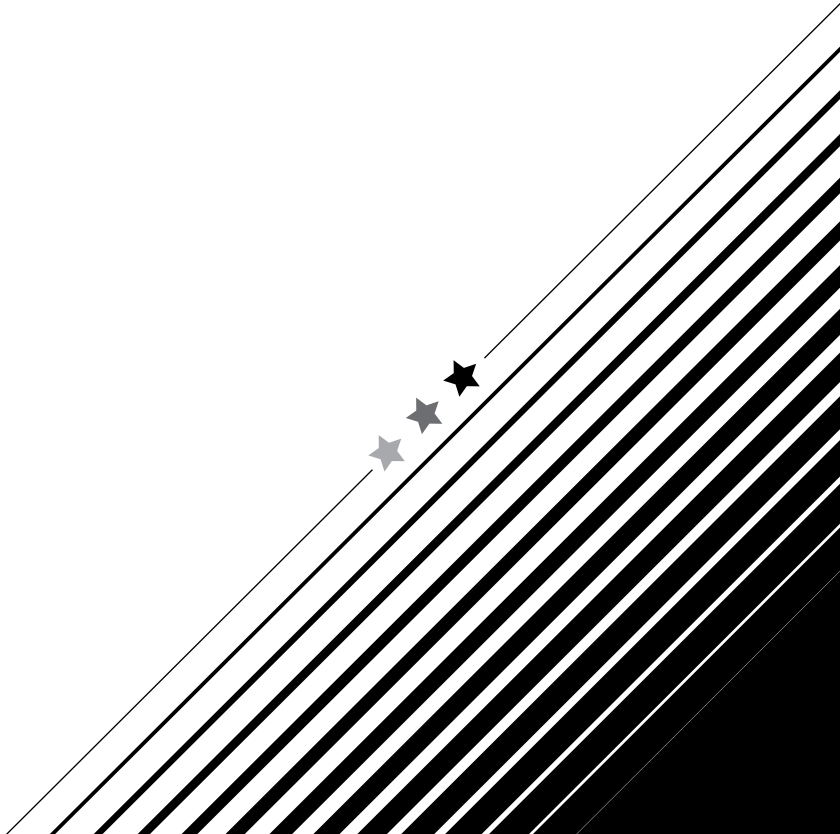
(١) ر: كراهية الديمقراطية - جاك رانسيير - ترجمة أحمد حسان - دار التنوير القاهرة بيروت

الفصل الثاني



التربة العقديّة والفكرية النكدة







الفصل الثاني

التربة العقدية والفكرية النكدة

كان ينبغي على المسلمين قبل غيرهم أن يفهموا أن التربة النكدة لا تخرج إلا نكداً، هكذا قال القرآن: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ بِنَاتِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُضَرِّفُ لَأَآئِكَ لِقَوْمٍ يُشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]، لكننا تحت وقع الهزيمة النفسية وعلى أثر الانبهار بما عليه المحتل المستعمر من زخرف ننسى ذلك، ونظل نصفق للغالب بلا كلل ولا ملل، بينما الغرب نفسه بدأ يدرك اليوم ذاته ويقرأ صفحته في مرآة الأحداث والتطورات اليومية، ويسطر ويسجل الآفات ومواطن الضعف في الحضارة المعاصرة.

وأهم ما يهدد هذه الحضارة بالأفول ذلك المكون الذي نبتت فيه النظريات والنظم التي تقود مسيرة الغرب، ذلك الخليط غير المتآلف وغير السوي، فقد ورثت أوروبا الأفكار والتصورات التي بنت عليها فكرها ومناهجها أجمع من مصدرين، متنافرين ظاهراً ومتآلفين باطناً، المصدر الأول: الوثنية الرومانية والإغريقية وما أنتجته من فكر في مجالات السياسة والأخلاق والإلهيات، والمصدر الثاني: المسيحية الأوغسطينية المبدلة (دين بولس) وما أنتجته من فكر في المجالات ذاتها، فتكوّن لديها خليط غاية في التناقض والتعاضد في آن واحد، كقبيلتين بينهما من الأحقاد والثارات ما بينهما ولكنهما لضرورة



المنافسة مع أطراف أخرى دخلتا في تحالف بغیض مفید، كل منهما تتجرع مرارته وهي لائذة بالصمت.

ولتوضیح سهولة التقارب بين المصدرين أنقل قول «فشر» عن السر في الانتقال السريع من الوثنية إلى مسیحية قسطنطين: «غير أنه ليس ثم شك في أن اتخاذ المسیحية فيما بعد ديانة رسمية للبلاد ساعد على ازدياد صفوف المسیحيين زيادة سريعة؛ لاسيما أن التحول عن الوثنية إلى المسیحية لم يكن انتقالاً إلى جو غريب تمام الغرابة، أو شعوراً بانقلاب مباغت مفاجئ، بل بدا الولوج في المسیحية عملية رقيقة في التدرج الشعوري والعاطفي؛ إذ شابهت طقوس الديانة المسیحية وأسرارها المقدسة ما للديانة القديمة من طقوس وأسرار، كما اشتملت تعاليمها على تعاليم الأفلاطونية الحديثة، يضاف إلى ذلك أن القول بوجود واسطة بين الله والناس أمر مألوف عند الفرس وأهل الأفلاطونية الحديثة على السواء»^(١).

إلا أن الروح الوثنية ظلت غالبية على البقية الباقية من تعاليم الدين المسيحي، هذه الروح الوثنية كان لها بالغ الأثر في بناء نزعته الحادية مادية لا تؤمن إلا بالقوة، يقول «محمد أسد»: «إن المدينة الأوربية قائمة في أساسها على المدينة الرومانية الوثنية، وهي لم تأخذ من النصرانية التي اعتنقتها - لأسباب سياسية قاهرة - سوى الطلاء الخارجي وحسب، ثم إن المدينة

(١) تاريخ أوربا في العصور الوسطى - فشر - ت محمد مصطفى زيادة وزميله - ط السادسة - دار



الأوروبية لا تزال في واقعها وثنية مادية لا تؤمن بغير القوة، من أجل ذلك نرى فرقا عظيما بينها وبين الإسلام، الذي بُني على الروح والأخلاق والمثل العليا»^(١)، ولأنّ أوروبا لم تأخذ من المسيحية إلا الطلاء يقرر محمد أسد أنّه: «ولا لوم على امرئ يقول: ليس الذي مكن الغرب من أن يبلغ هذا الرقي الباهر تفوق كامن في النصرانية، وذلك لأنّ هذا الرقي إنّما هو في الحقيقة أثر من آثار مقاومة القوى العقلية في أوروبا لكل مبدأ من مبادئ الكنيسة»^(٢).

ولأنّ المسيحية أقفرت إلا من تعاليم أوغسطينية وثنية في جوهرها صليبية عنصرية في مظهرها، ارتجلت أوروبا نظم حياتها، وراح الأوروبيون بدلا من أن يبحثوا كيف ستكون أوضاعهم الاجتماعية، أخذوا يبحثون في فضاء ليس فيه هدي من السماء، يقول «أنتوني بلاك» موضحًا الفرق بين المسيحية والإسلام: «رأى المسيحيون الأوائل أنّ هذا العالم حالة ميثوس منها، وعندما لم يُظهِر مسيحيهم المنتظر أيّ إشارة لعودته؛ بدأوا التفكير: كيف سيبدو المجتمع العادل؟ بينما فكر المسلمون من ناحية أخرى منذ البداية بأنّ لديهم مجموعة منزلة إلهيًّا من المؤسسات الحكومية والاجتماعية والاقتصادية، بدأ المسلمون الأوائل إنجاز مهمتهم العالمية، بالفتح والحكم إضافة إلى الدعوة والقُدوة، كان محمد صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه

(١) الإسلام على مفترق الطرق - محمد أسد - ترجمة عمر فروخ - دار العلم للملايين - بيروت - ط ١٩٨٧م ص ٤١

(٢) الإسلام على مفترق الطرق - محمد أسد - ترجمة عمر فروخ - دار العلم للملايين - بيروت - ط ١٩٨٧م ص ٤٦



يعتقدون أنّ لديهم الحق في حكم العالم كله، واعتبر القادة المسلمون أنّهم كانوا يؤسسون نوعاً جديداً من الحكومة، يستند إلى الوحي الذي تضمن تصورات عن العدالة الاجتماعية والاقتصادية»^(١).

ولم يقف ضرر الميراث المسيحي للغرب عند هذا الحدّ السلبيّ، وإنّما تجاوزه إلى ما وراءه من الأضرار الفاعلة، فقد سرت روح الاستبداد الذي أذكى ناره التحالف النكد بين الكنيسة والقصر، سرت هذه الروح في النفسية الأوربية، فلم تعد الديمقراطية قادرة على كبحها؛ لأنّها شديدة التجذر في التربة النكد، يقول «هربرت ج ويلز» في كتابه «معالم تاريخ الإنسانية»: والجلّي الذي لا خفاء فيه أنّ قدرًا كبيراً من تاريخ المسيحية في ذلك العصر يشف عن روح قسطنطين الكبير بقدر ما يشف عن روح يسوع، إن لم يزد، وكان قسطنطين مستبدًا أو توتوقراطياً مطلقاً... فإنّ فكرة محقّ كل خصومة وانقسام والقضاء على فكر بواسطة فرض عقيدة اعتقادية واحدة على المؤمنين جميعاً فكرة استبدادية أتوقراطية بأشمل معاني الكلمة... وعنه اقتبست المسيحية الميل للاستبداد وعدم الخضوع للمساءلة وإنشاء هيئة تقوم على المركزية وتعيش مع الإمبراطورية على غرارها وإلى جوارها»^(٢).

(١) الغرب والإسلام.. الدين والفكر السياسي في التاريخ العالمي - أنتوني بلاك - ت. د. فؤاد عبد المطلب -

المجلس الوطني للثقافة - الكويت - ط ٢٠١٢ م ص ٦١

(٢) معالم تاريخ الإنسانية - ه. ج. ويلز - المجلد ٣ - ترجمة عبد العزيز جاويد - الهيئة المصرية

للكتاب - القاهرة - بدون تاريخ - ص ٣٨-٣٩



وليت أوروبا لدى انطلاقتها الأولى عندما مسحت عن عينها القذى وانطلقت يطاردها شبح الكنيسة، ليتها في ذلك اليوم الحاسم التفتت لتلقي نظرة على الإسلام، أوليت المسلمين يومها كانوا يقفون لها ويأخذون عليها السبيل بالدعوة لدين الله، لكن لا هذا حدث ولا ذلك تيسر؛ فلم يكن إلا ذلك المصير، أن تجثو أوروبا على ذلك التراث المزدوج المزاج بين الوثنية الإغريقية الرومانية وبين ديانة بولس المسماة كذبا بالمسيحية، ولم يكن استدعاء أوروبا لفكر أرسطو من منطلق اختيار الأفضل، إنما للأسف الشديد كان لأمر آخر، يكشف عنه «متوجمري وات» فيقول: «اهتمام الأوربيين بأرسطو لا يرجع إلى المقومات الأساسية لفلسفته، وإنما يرجع إلى انتمائه إلى تاريخهم الأوربي، وبتعبير آخر فإنَّ إحلال أرسطو مكان الصدارة في الفلسفة والعلوم ينبغي النظر إليه باعتباره مظهرًا لرغبة الأوربيين في تأكيد اختلافهم عن المسلمين، ولم يكن هذا النشاط السلبي تمامًا - المتمثل في التنكر للإسلام - أمرًا سهلاً، بل كان في الواقع أمرًا مستحيلًا، خاصة بعد كل ما تعلمه الأوربيون من علوم العرب وفلسفتهم - ما لم يكن قد صاحب هذا التنكر نشاط إيجابيٍّ متمثلًا في الدعوة إلى العودة إلى ماضي أوروبا الكلاسيكي، أي إلى حضارتي الإغريق والرومان»^(١).

وليتهم أدركوا يومها تلك الحقيقة الأرسطية التي كشف عنها «جورج سباين» عندما قال: «الواقع أننا لو حكمنا على تلك الفلسفة على أساس

(١) فضل الإسلام على الحضارة الغربية «تأثير الإسلام في أوروبا خلال العصر الوسيط» - مونتجومري

وات - ترجمة حسين أحمد أمين - دار الشروق بيروت لبنان - ط ١٩٨٣ م ص ١٠٧-١٠٨



الدور الذي لعبته في القرنين التاليين لوفاة أرسطو لما أمكن إلا أن نعتها فشلاً ذريعاً^(١)، لكنّها الفتنة التي أضلت خلقاً كثيراً، ولم تستطع أوروبا بعد ذلك أن تنهض في علومها المادية إلا بعد أن تحررت من قيود الفكر الأرسطي في ميدان الأبيستمولوجيا، أمّا في المجالات السياسية فقد ظلت أسيرة للفكر اليوناني عموماً وللأرسطي خصوصاً.

ولعلها ورثت روح الصراع الدائم الذي لا يفتر من خرافات الوثنية، ذلك الموروث المتغلب على تعاليم المسيحية، ووجدت في ذلك سلوى عن الخطاب الشرعيّ الذي يرفع همتها ويحدوها على طريق النهضة ومنازلة القوى الرجعية؛ لذلك «انطلق ميكيافيلي في بنائه لنظريته من ذات المنطلق الذي انطلق منه إنسانيو القرن الرابع عشر، وهو الصراع بين الشجاعة والحظ، واستعاد مثلهم العقيدة القديمة التي اعتبرتها الكنيسة يومها هرطقة توجب الكفر، وهي القاضية بأنّ إلهة الحظ تتحكم في مصائر الناس، لكن الشجاع الغلاب ولاسيما إذا كان من الشبان غير الحذرين يستميلها أو يغلبها بشجاعته، غير أنّهم كانوا يخاطبون المواطنين بهذا ليحموا حريتهم ويدافعوا عن جمهورياتهم ضد الطغاة، بينما هو كان يوجهها للأمير الذي يتوق للشرف والمجد والسؤدد لينقذ البلاد ويستعيد مجد روما القديمة في إيطاليا الحديثة»^(٢).

(١) تطور الفكر السياسي لجورج سباين ترجمة جلال العروسي ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٠م ج١ ص ١٨٩.

(٢) راجع: أسس الفكر السياسي الحديث (عصر النهضة) الجزء الأول - كويتن سكر - ت: د.



وبهذا يتبين لنا أنّ ذلك الخليط النكد والمزيج العفن كان من مصدرين غلب أحدهما على الآخر، الأول: روح الوثنية الإغريقية والرومانية وجوهرها، الثاني: التعاليم الأوغسطينية البولسية التي لا تمت للمسيح بأدنى سبب، والتي لم يبتق منها سوى قشور ومظاهر طقوسية لا تخلو من وثنية هي الأخرى، ومن الطبيعي والأمر هكذا أن يتغلب المصدر الأول على الثاني، وأن يمتزجا بصورة تجعل المركب كله نكدا لا يجدي ولا يفيد بل يورث الضلال والخبال، فبينما يتعاونان على بسط الهيمنة على العالم الخارجي يقوم بينهما صراع وتدافع داخليّ عنيف وقذر في كثير من الأحيان.

★ ولذلك برغم أن انطلاقة أوربا كانت علمانية إلا أنّ عنصر اللاهوت ظل
★ مركبا في جسمها بشكل غاية في التعقيد؛ لذلك عندما ألف «كارل شميت»
★ كتابه «اللاهوت السياسي» لم تجد الحجة القوية إلى نقده وتفنيده ما جاء فيه سبيلا، وعندما حاول البعض مثل «بترسون» الرد عليه بعد إصداره الكتاب الأول بزعم أن «الكنيسة ليست من هذا العالم» رد عليه شميت في الجزء الثاني قائلا: «كنيسة المسيح ليست حقا (من) هذا العالم لكنّها (في) هذا العالم؛ وهذا ما يعني أنّها تأخذ وتعطي حيزا»^(١)، وقد اعتمد شميت على كثير مما تردد في عصره ممن لهم اطلاع ونظر، فينقل عن مقال نشر بالمجلة الفصلية

حيدر حاج إسماعيل - المنظمة العربية للترجمة - توزيع مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت
- لبنان - ط أولى ٢٠١٢ م ص ٢٣٣ وما بعدها

(١) ر: اللاهوت السياسي - كارل شميت - ت رانية الساحلي وزميلها - المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات - قطر - ط أولى ٢٠١٨ م ص ١١٢



اللاهوتية عبارة: «يسود الملك ولكن لا يحكم»^(١)؛ ليرمي بها في وجه بترسون وغيره من اللاهوتيين المبشرين بنهاية اللاهوت السياسي، ونقل عن آتجر (Atger): «الأمير هو الإله الديكارتي المنقول إلى العالم السياسي»^(٢)، وبعد أن قرر أنّ الفصل بين الدولة والكنيسة قضية تتعلق بالتمييز القانوني بين الموضوعات ذات الطابع المؤسسي، وليس التمييز بين المضامين في الواقع؛ نقل عن «روبرت هيب» أنه: «لم يعد هناك لاهوتاً بحتاً ولا سياسة بحته؛ لقد أثر مجال المجتمع والاجتماعي في كليهما على السواء، وأذاب تمييزهما»^(٣)، وبالطبع هذا يفسر سهولة صعود اليمين المحافظ ثم اليمين المتطرف في الغرب، فقد تولى المتطرفون اليمينيون حكم البلاد في السويد والمجر وإيطاليا، وهم في طريقهم لذلك في كثير من دول أوربا مثل النمسا وهولندا بل وفرنسا التي كادوا أن يظفروا بالحكم فيها إبان انتخابات فرنسا الماضية.

وليس الحداثة بأقل نكداً من ذلك كله، فمنذ كانت جنيئاً في فلسفة «توماس هوبز» إلى أن استوت في عصر الأنوار وهي تبرق وترعد بكل ما يضر ولا يسر، وهوبز هو أول من ابتدع ما يسمى بالعقد الاجتماعي، الذي صار بعد ذلك أساساً عريقاً للتصورات والأفكار السياسية، بينما هو في

(١) ر: اللاهوت السياسي - كارل شميت - ت رانية الساحلي وزميلها - المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات - قطر - ط أولى ٢٠١٨ م ص ١١٣

(٢) ر: اللاهوت السياسي - كارل شميت - ت رانية الساحلي وزميلها - المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات - قطر - ط أولى ٢٠١٨ م ص ٥٨

(٣) ر: اللاهوت السياسي - كارل شميت - ت رانية الساحلي وزميلها - المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات - قطر - ط أولى ٢٠١٨ م ص ٨٨





حقيقته مجرد فرض، يراد به إزاحة يد السماء عن الشأن الإنسانيّ، فالدولة نشأت وفق عقد انتقلت بموجبه من الحالة الطبيعية الوحشية إلى حالة الدولة والنظام، يقول «ديورانت»: «ولسنا ندرى هل كان لـ»حالة الطبيعة« التي قال بها هوبز وجود يوماً ما؟ فربما كان النظام الاجتماعي سابقاً للإنسان، فالقبيلة سبقت الدولة والعرف أقدم وأوسع وأعمق من القانون، والأسرة هي أساس بيولوجي ينمي الذات (الأنا) وولاءاتها، وربما أصبح علم الأخلاق الذي جاء به هوبز أكثر ملاءمة لو أنّه عمد إلى تنشئة أسرة»^(١).

والحدائثة التي هي عقيدة الحضارة الغربية المعاصرة تستبعد فكرة «الله»؛ ليس لمجرد إنكار الألوهية فإنّها بعد ذلك تصالحت مع هذه الفكرة، لكن بعد أن حققت المراد، وهو استبعاد سلطان الله وإقامة الحياة على أساس من سيادة الإنسان وحسب، يقول «ألان تورين»: «فالحداثة تستبعد أيّ غائية... تُحِلُّ الحداثةُ فكرةَ «العلم» محل فكرة «الله» في قلب المجتمع، وتقتصر المعتقدات الدينية على الحياة الخاصة بكل فرد»^(٢)، ويقول: «الأيدولوجية الغربية للحداثة والتي يمكن أن نسميها بالحداثة قد ألغت فكرة الذات وفكرة الله المرتبطة بها... يقول أنصار الحداثة: إنّه لا المجتمع ولا التاريخ ولا الحياة الفردية تخضع لكائن أسمى يجب الإذعان له... الفرد لا يخضع

(١) قصة الحضارة - ول ديورانت (ويليام جيمس ديورانت) ت: د. زكي نجيب محمود وآخرين -

دار الجيل، بيروت - لبنان - ط: ١٩٨٨ م ٢٤ / ٣٤

(٢) نقد الحداثة - ألان تورين - ترجمة أنور مغيث - المجلس الأعلى للثقافة - مصر - ١٩٩٧ م ص ٢٩



إلا لقوانين الطبيعة»^(١)، فالفكرة التي تقوم عليها فكرة الحداثة في جوهرها هي عزل «الله» عن الحياة وعن الشأن الإنساني، فرارا من شبح الكنيسة، وفرارا كذلك من التكليف، ورغبة في إقامة الحياة على أساس من رفض ألوهية الله، وهذا هو جوهر الجاهلية.

ولعل كتاب «الدولة المستحيلة» الذي نجح جزئيا في إرساء فكرته الأصلية؛ قد نجح بشكل كلي في تصوير الحداثة، فانظر إليه وهو يجسدها في هذه الكلمات: «على خلاف البعد الميتافيزيقي الشرقي، تقوم الميتافيزيكا في الغرب ابتداء من عصر التنوير على مبدأ السيادة على الكون والسيطرة على الطبيعة بأكملها، هذا المبدأ هو الأساس الذي انطلقت منه دراسة الواقع، ويمثل العامل القيمي المحوري الحاسم في تشكيل البنية المعرفية والأخلاقية للغرب في العصر الحديث، وهذه السيطرة ليست فقط على المادة المتوحشة البليدة الغبية وإنما كذلك على الذات الإنسانية، ومن هنا فالإله على فرض وجوده قد خلق الطبيعة ثم انسحب من المشهد، ولم تعد له علاقة بالكون، والإنسان هو من له السيادة والسيطرة، ومن ثم فالمعرفة هي القوة والتغيير وإحكام السيطرة، وفي هذا السياق تكون الوضعية والبرجماتية أدوات عادية في يد السيادة الجديدة على الكون والحياة، وتَبَّتْ العلاقة بين القيمة والواقع، وكذلك بين السياسي والقانوني من جهة وبين الأخلاقي»^(٢).

(١) نقد الحداثة - ألان تورين - ترجمة أنور مغيث - المجلس الأعلى للثقافة - مصر - ١٩٩٧م ص ٣٢

(٢) الدولة المستحيلة - الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي - وائل حلاق - ت عمرو عثمان -

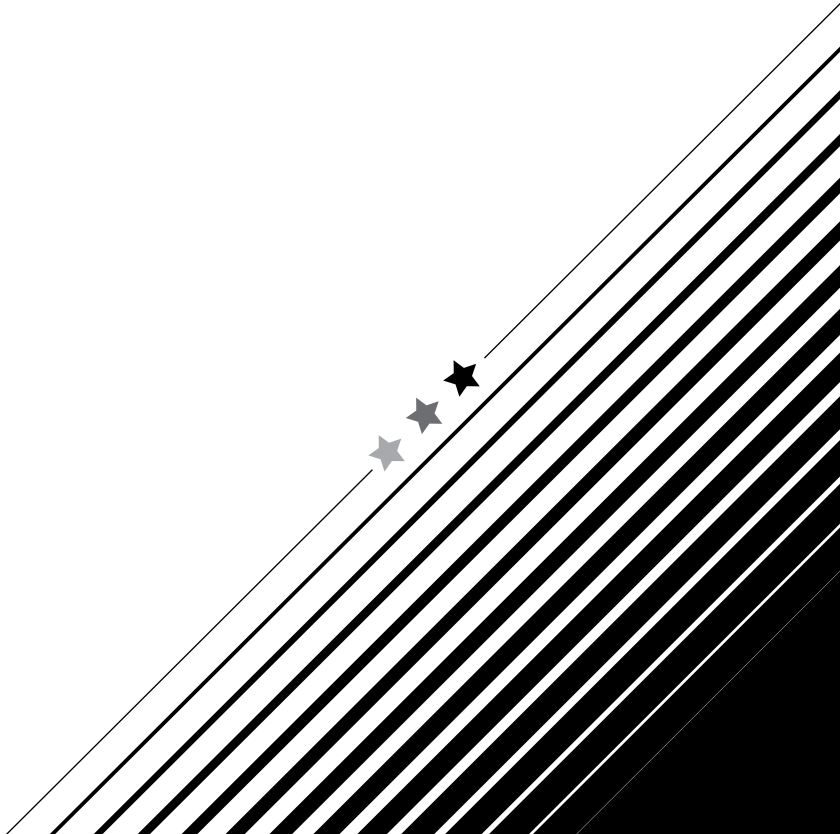


الفصل الثالث



البعد الأخلاقي والإنساني والاجتماعي







الفصل الثالث

البعد الأخلاقي والإنساني والاجتماعي

«أليس الإيمان بالإنسان بدلا من الإيمان بالله هو شكل من أشكال الدين وإن بدرجة أنزل؟! إن لجوء الماديين إلى الإنسان بدلا من الرجوع إلى الله يبدو غريبا في ضوء ما أكده ماركس نفسه عندما قال: «إنَّ الأمل في الإنسانية المجردة للإنسان وهم لا يقل عن الوهم الدينيِّ الخالص»، وهذا كلام يتسق مع مفهوم المعادلة التي تقول: «إذا لم يوجد إله فلا يوجد إنسان أيضا»^(١)، تساؤل يثيره «بيغوفيتش» مستنكرا هذا الانقلاب غير المبرر عقلا، والذي صار فيما بعد جذرا للانقلاب في ميزان الإخلاق.

إنَّها التربة الحداثية التي لا تخرج إلا نكدا، فعندما لا يكون مصدر الأخلاق هو الله تعالى من خلال وحيه وشرعه ودينه، ويكون الإنسان المتغير المتقلب هو مصدر التشريع ومصدر الأخلاق وسيد الأرض الذي لا يصح للسماء أن تتدخل في شأنه، والذي لا يليق له أن يخضع لإله وراء هذا الكون، عندما يكون الوضع على هذا النحو فلا عجب أن تكون الأخلاق متطورة ليس بالمعنى الصاعد، وإنَّما بمعنى التغير المحض الذي يكون فيه السالف باطلا والقادم حقًا بغض النظر عن قيمة أيٍّ منهما.

(١) الإسلام بين الشرق والغرب - علي عزت بيغوفيتش - ترجمة محمد يوسف عدس - دار النشر

للجماعات مصر - مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام - ط ثانية ١٩٩٧م ص ١١٢

يورد «وائل حلاق» أخطر الظواهر الأخلاقية بطريقة فيها رفع واقع غاية في الدقة والتقدير، يقول: «المنظرون للفكر الحدائّي يواجهون ثلاثة نواقض لفكرهم، أولها أنّ ما عانتها البشرية قبل العصر الحديث من فقر وجوع ومرض بأسباب طبيعية عانتها في العصر الحديث بأسباب من صنع الإنسان وهي الرأسمالية والنزعة التصنيعية وفساد البيئة، ثانيها أنّ العصر الحديث شهد وحده بلا منازع حالة التفكك في بنى الأسرة والمجتمع في ظل الدولة الرأسمالية الحديثة؛ مما كان له أثره في إنتاج شخصية فرد مغترب شديد النرجسية، ثالثها: مشروع الدمار الذي يحكم العلاقة بين الرجل والمرأة ويصوغها بالصورة التي تضر بهما معاً؛ مما يستدعي المسؤولية الأخلاقية قبل كل شيء»^(١)، ويردّ ذلك إلى جذوره، فيقرر أنّ التفريق بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون أو بين الواقع والقيمة هو منبع التردّي الخلقي: «إذا كان هوبز وديكارت هما اللذان كيفاً فكرة الانقسام بين «ما هو كائن» و«ما ينبغي أن يكون» في البداية وبصورة مبسطة، وإذا كان هيوم هو الذي طرحها كإشكالية فلسفية، في حين ترجمها أوستن إلى الوضعية القانونية؛ فإنّ نيتشة هو الذي أعلى سقفها الوضعي بإنكاره الحادّ صحة الانقسام كلياً، وهو إنكار لم يتأت من التوفيق بين الاثنين أو على حساب شقّ الحقيقة من المعادلة، بل تحقق عن طريق التضحية بالقيمة أو بما ينبغي أن يكون»^(٢)، ويذهب إلى مدى

(١) ر: الدولة المستحيلة - الإسلام والسياسة ومأزق الحدائث الأخلاقي - وائل حلاق - ت عمرو عثمان -

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات - ص ٣٤

(٢) الدولة المستحيلة - الإسلام والسياسة ومأزق الحدائث الأخلاقي - وائل حلاق - ت عمرو عثمان -

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات - ص ١٦١



أبعد، فيقول: «أصبح من المسلّمات في الأوساط الفلسفية اليوم أن نظرية هوبز، بخصوص وجوب تأسيس الأخلاق على قوانين موضوعية يكشفها العقل، لا على التراث أو أي نصوص دينية؛ قد مهدت للتصور الحديث عن العلاقة بين القانون والأخلاق»^(١).

وفي كتاب «انتحار الغرب» يسهب المؤلفان في سرد أخلاق العصر الباعثة على التشاؤم: «أطروحتناهي أنّ الفرد الذي يُحسّن نفسه، والواثق والمسئول، والمتجذر تجذراً كاملاً في مجتمع ليبراليّ مع إحساس بالواجب تجاه هذا المجتمع؛ هو الفرد الذي يتلاشى الآن تدريجياً، وفي مكان الإيمان لدينا اللاأدرية أو النسبية، وفي مكان التفاؤل لدينا الجبرية، وفي مكان الإحساس بالتقدم لدينا التحذيرات المسبقة، وفي مكان الأحلام لدينا الكوابيس ... وفي مكان المثالية لدينا الارتياب، وفي مكان المعنى والهدف لدينا المال، وفي مكان العقل لدينا العواطف ... وفي مكان الجدية لدينا التفاهة والإفراط في الشهوات، وفي مكان الخبرة الصلبة لدينا الضحالة، وفي مكان المخاطرة برغم اليأس لدينا الاكتئاب ... وفي مكان المجتمع لدينا التشظي ... المورثات تبقى تهديداً قوياً للغرب، لا من الخارج فقط بل من الداخل الذي يعتبر أكثر تهديداً»^(٢)، ويلاحظ أنّهما إلى جانب تركيزهما على الأخلاق

(١) الدولة المستحيلة - الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي - وائل حلاق - ت عمرو عثمان -

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات - ص ١٥٦

(٢) انتحار الغرب - ريتشارد كوك، كريس سميث - ترجمة محمد محمود التوبة - ط أولى ٢٠٠٩م

العبيكان السعودية ص ٢٠-٢١



الجوهرية المتدنية يهتمان بأمرين، الأول: ردّ ذلك التردّي الأخلاقي إلى الموروث النكد، الثاني: الإلحاح على فكرة الاكتئاب والتشاؤم؛ كأثرين من آثار التردّي الأخلاقي والتفكك الأسري والتفسخ والاعتراب المجتمعي، وها هما يعودان للتأكيد على حالة التشاؤم التي لا يبدو أنّ لها حلاً: «نحن لا نملك شيئاً لنكون متشائمين نحوه عدا التشاؤم نفسه ... وإنّ تدوير الغرب ليعود إلى التفاؤل سوف يستغرق حركة فكرية جديدة كاملة، وليس هناك أيّ علامة على مثل هذا التحول في الأفق»^(١).

والحقيقة المؤلمة أنّ الانحطاط لم يكن في الموروث وحسب، بل كان في أغلب «أنبياء النهضة والتنوير!» فعلى الرغم من كونهم رموزاً فكرية وقمما فلسفية، وعلى الرغم من كون فكرهم وقوداً للثورة والتغيير، لم تجد الشعوب في سلوكياتهم الشخصية ما يتسق مع العطاء الفكري، وقد انتشر ذكر هذه الظاهرة والتعليق عليها في كتب عدة، منها كتاب «إعادة التفكير في الحداثة» وأنقل منه هذا المقطع الذي يعلق فيه على أحد القمم الفكرية في الغرب: «ولقد حدث في منتصف القرن الثامن عشر أن أنتجت نسبة كبيرة من البرجوازيين الأوروبيين بقوتهم الاقتصادية الكبرى ثرواتهم وراكموها على أساس الأنشطة التجارية المرتبطة بتجارة العبيد ... ومن أمثالهم (جون

(١) انتحار الغرب - ريتشارد كوك، كريس سميث - ترجمة محمد محمود التوبة - ط أولى ٢٠٠٩م



لوك) الذي استثمر ماله في مشروعات تجارية تعتمد على الرق لتوليد عائد من تلك الاستثمارات، وفي الوقت ذاته كان مناهضا لتجارة الرقيق!^(١).

وقد تخللت التعليقات من هذا النوع كثيرا من الكتب التي تحدثت عن تاريخ الفكر السياسي وتطوره، مثل «سباين» و«شوفالييه» و«دوفرجه» وغيرهم، لكن لنفسح المجال لقلم من الأقلام التي اهتمت بجمع تلك النقائص والنقائص وسوقها على ألسنة عدد كبير من المراقبين، وهو «بول جونسون» في كتابه «المثقفون»، يقول في موضع من كتابه: «كان (روسو) أول مثقف يعلن عن نفسه مرارا وتكرارا أنه صديق للبشر جميعا، ولكن مع هذا الحب العام للبشرية كان لديه ميل شديد للخصام والشجار مع الأفراد من البشر... وعلى نحو خاص كان يبحث عن ابتسامات النساء... كان شخصا تعوزه الكياسة والدمائة، وكان في جوانب كثيرة من شخصيته جلفا سيئ التربية»^(٢)، وفي موضع آخر ينقل عن أحد الأكاديميين قائمة بعيوب «روسو» جاءت على هذا النحو المقزز: «مازوكي، محب للمظاهر، نوراستيني مصاب بوسواس مرضي، ممارس للعادة السرية، شاذ جنسيا شذوذا كامنا، لحوح، عاجز عن الحب الأبوي، شديد الارتياب في الآخرين، نرجسي، شديد

(١) إعادة التفكير في الحدائة - جيرمندر ك بامبرا - ترجمة ابتسام علام وحنان حافظ - المركز

القومي للترجمة - ط أولى ٢٠١٦م - ص ٧٠

(٢) المثقفون - بول جونسون - ترجمة طلعت الشايب - ط أولى ١٩٩٨م دار شرقيات - القاهرة -



الانطواء، يملؤه الشعور بالذنب، جبان لدرجة مرضية، مريض بالسرقة، صيباني السلوك، سريع الاستشارة، بخيل»^(١).

وعن ماركس سجل في موضع من كتابه هذا التوصيف: «كان ماركس قصير القامة عريض المنكبين أسود الشعر كث اللحية ... لم يكن لديه أي درجة من السلوك الحسن، متعجرف وراشح بالازدراء، صوته الحاد الرنان كان مناسباً تماماً لإصدار الأحكام العنيفة التي يوزعها على البشر والأشياء بلا توقف ... قدر بدرجة لا تحتمل، هجين قط وقرد، شعر أسود أشعث كالفحم وبشرة كالحة قدرة ... له عيان ضيقتان مملوءتان بالشر، ينفث حمماً من نيران شريرة»^(٢).

أمّا «برتراند رسل» فكان له نصيب الأسد من الكتاب الخطير المثير، فيقول عنه في موضع من الكتاب: «برتراند رسل ... هو صاحب أطول مرحلة في تاريخ المثقفين في تقديم النصح والإرشاد للمثقفين ... على مدى هذا الزمن قدم تياراً متدفقاً من النصح والموعظة والمعلومات والتحذيرات في موضوعات شتى ... ثمانية وستين كتاباً ... عدداً هائلاً من المقالات في الصحف والمجلات تناولت كل ما يخطر على ذهن من موضوعات ... فما الذي جعله مؤهلاً لتقديم كل ذلك النصح ... ربما يكون السبب الرئيسي الوحيد لكتابة كل هذا الكم هو أنه وجد الكتابة عملية سهلة وكان يتقاضى

(١) المثقفون-بول جونسون-ترجمة طلعت الشايب-طأولي ١٩٩٨م دارشوقيات-القاهرة-ص ٣٣

(٢) المثقفون-بول جونسون-ترجمة طلعت الشايب-طأولي ١٩٩٨م دارشوقيات-القاهرة-ص ٧٨



عليها ثمنا جيدا»^(١)، ويستطرد في موضع آخر: «كانت ضحايا رسل دائما من الكائنات المتواضعة: خادمت، مريبات، أو أي أنثى صغيرة وجميلة تتحرك في البيت... بالرغم من عمره المتقدم كان يمكن أن يطارد أي شيء داخل تنورة، يأتي في طريقه، وكان يفعل ذلك بطريقة فاضحة حتى مع الخادمت»^(٢).

فلا عجب أن غاب الحسّ الأخلاقي وتوارت القيم الإنسانية الفطرية لدى الجماهير، إلى حدّ أنّ فضيحة بيل كلينتون المخزية لم تحرك شارباً في القارة الأمريكية، يقول «باتريك بوكنان»: «ما من ديمقراطي واحد صوت لإدانة السيد كلنتون؛ وهذا موقف يشهد بنجاح الثورة الثقافية في الإطاحة بالنظام الأخلاقيّ القديم وبمعاييره الموضوعية للحقيقة والأخلاقيات والعدالة»^(٣)، ولا عجب أن يقع هذا في مجتمعات تعتقد وتدين بما يقرره «جيرمي بنثام»، نقل بيغوفيتش عن جيرمي بنثام صاحب مذهب المنفعة في علم الأخلاق الذي يقول: «لقد أخضعت الطبيعة البشر لحكم سيدين هما: اللذة والألم؛ فهما وحدهما اللذان يحكمان أفعالنا»^(٤)، ولعل هذه الحالة المتردية دعت الكثيرين إلى المناداة بنقض هذا النظام القيمي المنحرف من جذوره، يقول «إيدموند ج بورن»: «إنّ أعداداً متزايدة من الأفراد المهتمين تعلو أصواتهم

(١) المثقفون - بول جونسون - ترجمة طلعت الشايب - ط أولى ١٩٩٨م دار شرقيات - القاهرة - ص ٢٠٩

(٢) المثقفون - بول جونسون - ترجمة طلعت الشايب - ط أولى ١٩٩٨م دار شرقيات - القاهرة - ص ٢٢٦

(٣) موت الغرب - باتريك جيه بوكنان - ترجمة محمد محمود التوبة - مكتبة العبيكان - الرياض -

ط ١٤٢٦هـ ص ٢٥

(٤) الإسلام بين الشرق والغرب - علي عزت بيغوفيتش - ترجمة محمد يوسف عدس - دار النشر

للجمامات مصر - مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام - ط ثانية ١٩٩٧م ص ٢٠٠



بقناعة جماعية مفادها أن العالم لا يحتاج سوى نظرة جديدة للمستقبل، تعتمد على نظام قيميّ جديد»^(١)، ودعت آخرين من المؤلفين المشهورين إلى أن يهتفوا في الجيل ألباس من هذه الحالة، مثل «برتراند رسل» الذي يعطّ: «إنّ عصرنا مظلمٌ، ولكن لعل نفس المخاوف التي يوحى بها تصبح مصدرا للحكمة، وإذا أردنا أن يحدث ذلك فلا بد للجنس البشري أن يتجنب الاستسلام للباس في السنوات الخطرة القادمة، وأن يعمل على إبقاء جذوة الأمل في مستقبل أفضل بكثير من أي شيء في الماضي، وليس هذا بمستحيل؛ فنحن نستطيع أن نحققه لو أردنا ذلك»^(٢)، وتلك أمنية الحالم، وهيئات!

بالطبع كان للتردي الأخلاقي بُعداً اقتصاديّاً ساهم بقدر كبير في تدمير الإنسان من داخله، هذا البعد الخطير أطلقته الفلسفة الليبرالية الرأسمالية، «فقد أخذ معنى الحرية منحى أكثر مادية، وهو حرية الفرد بالنظر إلى كونه كائناً اقتصاديّاً، وهو معنى أبعد عن القيم الإنسانية وأقرب إلى القيم النفعية الكمية، وهو المعنى الذي كرس للرأسمالية العاتية، مما كان له بالغ الأثر في إنتاج الفكر الشيوعي كردة فعل عنيفة للتطرف الرأسماليّ الليبراليّ، وهذا التطور في المفهوم الليبرالي للحرية أدّى إلى تدهور شديد في القيم الليبرالية، وتخلف شديد في المنظومة الأخلاقية؛ لذا يصح أن نقول: إنّ الفلسفة

(١) التغير العالمي من أجل بشرية أكثر إنسانية - إيدموند . ج . بورن - ترجمة سماح خالد زهران -

المركز القومي للترجمة - مصر - ط ٢٠١٥ م - الهيئة العامة للمطابع الاميرية ص ٣٨

(٢) المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة - برتراند رسل - ترجمة عبد الكريم أحمد - ط مكتبة

الأنجلو المصرية - القاهرة - بدون تاريخ - ص ١٤٠



الأخلاقية الليبرالية هي في جوهرها غير أخلاقية، بل لن نبالغ لو قلنا: إنّه لم يسبق لمذهب فلسفي أن ابتذل الأخلاق وحول قيمها إلى أن تُعايرَ بأوراق البنكنوت مثلما فعلت الليبرالية بنزعتها البنثامية الموغلة في النفعية ... إنَّ النظرة المقارنة تكشف لنا أنَّ الأخلاق الليبرالية هبطت إلى مستوى أحسَّ من الأبيقورية، وما خلص إليه بنثام كان أكثر إيغالاً في حسية النظرة النفعية من أبيقور، الذي كان مضرب المثل لدى الناقلين لفلسفة الأخلاق في الانحطاط الفكري والأخلاقي»^(١).

وعندما يتحول الإنسان إلى كائن اقتصادي نقدي تتحول معه العلاقات الاجتماعية بنفس القدر إلى علاقات مادية اقتصادية نقدية، ما يمكن أن نسميه تسليع العلاقات الإنسانية، وذلك بمحاذاة صنمية السلعة المادية، وعندهم «صنمية السلعة تعني عبادة روابط الإنتاج وقوانين السوق؛ بمعنى أن يقع الناس تحت سيطرة السلعة وتتحول العلاقات الاجتماعية محكومة بقوانين السوق كالعلاقة بين السلع»^(٢).

فلا عجب والحال هكذا أن تتوارد الإحصائيات المرعبة حول الممارسات غير الأخلاقية، فهذا على سبيل المثال لا الحصر بيغوفيتش ينقل عن مصادر: أن إحصائيات سابقة تقول: «في أمريكا تحدث جريمة كل ١٢ ثانية، وجريمة قتل كل ساعة، وجريمة اغتصاب كل ٢٥ دقيقة، وجريمة سرقة كل خمس

(١) راجع: نقد الليبرالية - د. الطيب بو عزة - مجلة البيان - الرياض - ط أولى ٢٠٠٩م - ص ١٥١

(٢) ر: المصطنع والاصطناع - جان بودريار - ترجمة جوزيف عبد الله - مركز دراسات الوحدة

العربية - بيروت - ط أولى ٢٠٠٨م ص ٢٤٦



دقائق، وزيادة معدلات الجرائم الخطرة تتزايد بسرعة أكبر ١٤ مرة من سرعة النمو السكاني^(١)، ويقول: «نشرت منظمة الصحة العالمية في جنيف سنة ١٩٧٨م قائمة مقارنة لنسب حوادث الانتحار... وكان الانتحار هو السبب الثالث من أسباب الوفاة... وفي تقرير للمنظمة سنة ١٩٧٠م يبرز بوضوح: «أن هذه الظاهرة تتوازي مع التصنيع والتحضر وانهيار الأسرة»^(٢)، وهذا قليل جدا من كثير لا ينقضي.

أخلاق القوة

أمّا الجانب الأشد ظلمة في المنظومة الأخلاقية للحضارة الغربية المعاصرة فهو ما يتعلق بالقوة، فإنّ امتلاك الغرب للقوة كان بلاء على البشرية كلها؛ لأنّه لا نفع بإظهار القوة إلا مع إبداء القدوة، وقد عانت أوروبا نفسها وكابدت آلام الحريين الكبيرتين؛ حتى إنّ من أقوال «ليون تروتسكي» المأثورة: «كل من كان يتوق إلى حياة هادئة اقترف خطأ كبيرا حين ولد في القرن العشرين»^(٣)، هذا على الرغم من أنّ القرن الحادي والعشرين أقبل على الخلق بحزمة من الإنجازات الدموية تؤكّد بأنّه سيكون أسوأ من سابقه.

- (١) الإسلام بين الشرق والغرب - علي عزت بيغوفيتش - ترجمة محمد يوسف عدس - دار النشر للجمامات مصر - مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام - ط ثانية ١٩٩٧م ص ١١٧
- (٢) الإسلام بين الشرق والغرب - علي عزت بيغوفيتش - ترجمة محمد يوسف عدس - دار النشر للجمامات مصر - مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام - ط ثانية ١٩٩٧م ص ١٢٣
- (٣) الحرية - خمس مقالات عن الحرية - إيزايا برلين - ترجمة يزن الحاج - دار التنوير للنشر القاهرة - ط أولى ٢٠١٥م - ص ٦٩





وكل ذلك سببه امتلاك من لا خُلُق ولا دين لهم للقوة المتناهية في سرعة الفتك، لقد حقق العلم إنجازا كبيرا في سحق البشر، ينقل لنا «جون ديوي» هذا القول المؤثر لأحد العلماء، فيقول: «ويمتاز الجانب الآخر من دفتر حساب «الأستاذ» بوجود صحيفة دائنة مثل تلك التي أشار إليها العالم الكيميائي «صودي» بقوله: «إنَّ لآلئ العلم لم تُلقَ إلى الآن إلا للحلايف؛ فكوفئنا على ذلك بفئة من أصحاب الملايين، وبأحياء الفقراء القدرة، وبالتسلح استعدادا للحروب وما تجره من ويلات ودمار... فالحرب تعبئ العلوم في سبيل التدمير الشامل»^(١)، ويؤكد بيغوفيتش على هذا المعنى قائلا: «إنَّ تاريخ الإمبريالية سلسلة من القصص الحقيقية لشعوب متحضرة شنت حروبا ظالمة استتصالية ضد شعوب متخلفة أقل تعليماً، كان أكبر ذنبهم أنهم يدافعون عن أنفسهم وحرّياتهم، إنَّ المستوى التعليمي الراقي للغزاة لم يؤثر على الأهداف أو الأساليب، لقد ساعد فقط على كفاءة الغزاة وفرض الهزيمة على ضحاياهم»^(٢).

وإذا كانت النماذج متعددة وشملت أقطارا عديدة في قارات العالم الست، فإنَّ كثيرا من المفكرين الغربيين - وقد آثرنا أن نكتفي بأقوالهم لكون الدراسة على طريق الاستغراب - قد ركزوا على مناطق معينة لأسباب مختلفة، فهذا

(١) الحرية والثقافة - جون ديوي - ترجمة أمين مرسي قنديل - مطبعة التحرير - مصر - ط ٢٠٠٣ ص ١٧٦-١٧٥

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب - علي عزت بيغوفيتش - ترجمة محمد يوسف عدس - دار النشر للجامعات مصر - مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام - ط ثانية ١٩٩٧ م ص ١٠١



مراد هوفمان الذي يتأثر بما وقع في قلب القارة الأوروبية من فظائع، يقول عن موقف العالم المتحضر مما جرى في البوسنة: «لم تشهد أوروبا منذ عصري ستالين وهتلر مثل تلك الجرائم، ولم تشاهد أوروبا منذ أيام الملك والملكة الكاثوليكيين جدا في إسبانيا القرن السادس عشر حربا دينية مثل هذه، ومع ذلك لم يتدخل العالم المتحضر عسكريا، ولكن انشغل بالمساعدات الإنسانية؛ وعمل بجِد واجتهاد حتى يضمن للمسلمين أن يُعذَّبوا أو يُغتَصَبوا أو يموتوا وهم شبعانون!»^(١)، ويستطرد ولكن في كتاب آخر: «هل يمكن أن يتخيل المرء أنّ الغرب ما كان ليتدخل منذ عام ١٩٩٢ م في البوسنة لو كان الصرب هم المسلمون وأذاقوا البوسنيين الكاثوليك ما أصاب البوسنيين المسلمين فعلا؟ ... هل كان الغرب سينتظر حتى يقتل ٢٠٠٠٠٠٠ بوسني ويطرده ثلاثة ملايين؟!»^(٢).

وقد رأينا ورأى العالم كله كيف أنّ أمريكا والغرب دمروا العراق وأفغانستان بذرائع باطلة ومختلفة، وقد علق الكثيرون على هذه الذرائع بما يكشف زيفها، ويكشف كذلك عن التردّي الخلفي، يقول «جان بوديار»: «ثمّ إنّ اعتداء ١١ سبتمبر هو الذي استكمل عملية العولمة، لا عولمة السوق وتدفق رؤوس الأموال، بل عولمة رمزية وأكثر عمقا، وهي عولمة الهيمنة

(١) الإسلام كبديل - د. مراد هوفمان - ترجمة: عادل المعلم - دار الشروق - القاهرة - ط أولى

١٩٩٧ م ص ١٥٨

(٢) الإسلام في الألفية الثالثة ديانة في صعود - د. مراد هوفمان - ترجمة: عادل المعلم وزميله -

مكتبة الشروق - القاهرة - ط ت بدون ص ٨٦



العالمية؛ وذلك باستثارته تحالف كل السلطات سواء منها الديمقراطية الليبرالية أو الشمولية الفاشية المتضامنة أو المتواطئة بصورة عفوية في الدفاع عن النظام العالمي؛ فكل السلطات ضد (alien)^(١)، وآلين هذا اسم مخلوق فضائي افتراضي من كوكب آخر يرمز به إلى اختلاق الأنظمة المجرمة لأخطار تبرر استمرارهم في الإجرام.

إنَّ الحقيقة التي يتجاهلها الغرب أنَّ حضارتهم حضارة إبادة، نقلت «جيرمندر ك بامبرا» عن «ليمرت» قوله: «إنَّ اكتشاف الغرب وبقائه تأسسا على الإنكار الكبير لحقيقة عدوانه وشره»... ثم علقته: «ويكون الموقف الحاليّ بتجاهل هذه الأحداث وتجنبها وحظرها وعدم التأمل فيها كجزء من تاريخ الغرب في تصور الغرب لذاته؛ إنَّهم يحتاجون إلى اهتمام عاجل!»^(٢)، ويقول «جون بيركنز» في كتابه الشهير «الاغتيال الاقتصادي للأمم»: «تنفق الولايات المتحدة ٨٧ مليار دولار لتقود حربا في العراق، بينما تقدر الأمم المتحدة أنه بنصف هذا المبلغ يمكننا تأمين المياه النظيفة والتغذية الكافية والخدمات الصحية والتعليم الأساسي لكل إنسان على وجه الأرض»^(٣)،

- (١) روح الإرهاب - جان بودريار - ترجمة بدر الدين عمرو زكي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مكتبة الأسرة - ط ٢٠١٠ م ص ٨٨
- (٢) إعادة التفكير في الحداثة - جيرمندر ك بامبرا - ترجمة ابتسام علام وحنان حافظ - المركز القومي للترجمة - ط أولى ٢٠١٦ م - ص ١٢١
- (٣) الاغتيال الاقتصادي للأمم - جون بيركنز - ترجمة مصطفى الطناني - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٤ م ص ١٩



فانعدام الأخلاق في الحضارة المعاصرة صار ظاهرة عامّة طامّة لا تخفى على الغربيين أنفسهم، وصاروا يحذرون من انهيار الحضارة بسبب انهيار الأخلاق. والحقيقة أنّ الكلام هنا يطول؛ لذلك سأكتفي بنقل بعض المقتطفات عن شخصيتين عرفتا بالقدرة الشديدة على فضح الغرب ولا سيما أمريكا، الشخصية الأولى: الصحفي الأمريكي «نعوم تشومسكي» والثانية البرلمانية الكندية «نعومي كلاين»، يقول تشومسكي: «فقد أعاقت الولايات المتحدة بعض الحكومات البرلمانية، وأسقطت بعضها، كما حدث في إيران عام ١٩٥٣م وجواتيمالا عام ١٩٤٥م وتشيلي عام ١٩٧٢م، ولم يكن القتل العادي هو عمل القوات التي حركناها في نيكاراغوا، أو عمل وكلائنا الإرهابيين في السلفادور أو جواتيمالا - ولكنه كان بصفة واضحة قتل القسوة والتعذيب السادي: تعليق النساء من أقدامهن بعد قطع أظفارهن وفصّ بكارتهن، وقطع الرؤوس وتعليقها في الخوازيق، ورطم الأطفال بالجدران حتى يموتوا»^(١).

وفي موضع آخر يقول: «الغرب الديمقراطي رحب بانقلاب (سوهارتو) في أندونيسيا؛ لأنه قضى على الحزب الوحيد الذي يتمتع بقاعدة شعبية عريضة، ولم يكثرث بقتله لحوالي ٧٠٠٠٠٠٠ إنسان، وقد هللت بذلك فرحًا أكبر الصحف، مثل النيويورك تايمز والإيكونومست وكريستيان ساينس

(١) راجع: ماذا يريد العم سام؟ - نعوم تشومسكي - ترجمة عادل المعلم - دار الشروق - القاهرة



مونيتور!)^(١)، ويضيف في موضع ثالث: «لم يثر انقلاب فاشٍ في كولومبيا على طريقة فرانكو إسبانيا إلا قليلا من احتجاج الولايات المتحدة الأمريكية، بينما لم تهتم بانقلاب عسكري في فنزويلا ولا بعودة السلطة للمعجب بالفاشية في بنما، ولكن أثارت المرارة والعداوة في حكومتنا أول حكومة ديمقراطية في تاريخ جواتيمالا... وفي عام ١٩٥٤م هندست المخابرات الأمريكية انقلابا حوّل جواتيمالا إلى جهنم أرضية»^(٢)، وعندما تأتي هذه الشهادات من رجل أمريكي له في ميدان الصحافة والشأن العام منزلة كبيرة؛ فإنها تكون بمثابة الوثائق التي لا يمكن الطعن فيها، ونحن المسلمين عانينا كثيرا من سوء أخلاق هذه الحضارة الشوهاء، غير أنّ ما سقناه من أمثلة أحيينا أن يكون أكثرها بعيدا عن دائرة الإسلام.

أمّا «نعومي كلاين» فقد كانت برغم فيضان الشعور بالأسى تكتب بعقلانية صارمة وتبني دراستها على إحصائيات ودراسات استقرائية غاية في الدقة والتحري، تحاول في كتابها «عقيدة الصدمة» أن تكشف جانبا من الفظائع التي ارتكبتها أمريكا في المخروط الأمريكي الجنوبي، فتقول: «ففي الأرجنتين في فترة السبعينيات شكل الاختفاء المفاجئ لثلاثين ألف شخص - كان معظمهم من الناشطين اليساريين - على يد الطغمة العسكرية جزءا لا يتجزأ

(١) ر: ماذا يريد العم سام؟ - نعوم تشومسكي - ترجمة عادل المعلم - دار الشروق - القاهرة - مصر - ط أولى ١٩٩٨م - ص ٤٦

(٢) ماذا يريد العم سام؟ - نعوم تشومسكي - ترجمة عادل المعلم - دار الشروق - القاهرة - مصر - ط أولى ١٩٩٨م - ص ٢٢



من عملية فرض سياسات مدرسة شيكاغو على البلد، تمامًا كما أن أعمال الرعب التي لازمت النوع نفسه من التحول الاقتصادي في تشيلي، وفي الصين في العام ١٩٨٩م كانت الصدمة الناتجة عن مجزرة ساحة تيانمين وما تلاها من توقيفات بحق عشرات الآلاف من الناس هما اللذان حررا يدي الحزب الشيوعي؛ كي يقوم بتحويل معظم البلاد إلى منطقة تصدير واسعة النطاق، اكتظت بالعمال الذين غلبهم الرعب الشديد؛ فمنعهم من المطالبة بحقوقهم، وفي روسيا في العام ١٩٩٣م كان قرار بوريس يلتسن إرسال دبابات لقصف مبنى البرلمان وحجز قادة المعارضة هو الذي مهد الطريق أمام الخصخصة الجنونية التي أنتجت طبقة الأقلية الحاكمة^(١)، وتنقل عن العالم الأرجنتيني «دانيال فيرستين»: «لم تكن الإبادة في الأرجنتين عفوية، ولم تكن كذلك وليدة حظٍّ أو عملية خالية من المنطق، إنما كانت عملية إلغاء منظم لجزء كبير من الشريحة الوطنية الأرجنتينية، يهدف إلى تحويل تلك الشريحة؛ من خلال إعادة تحديد أسلوب حياتها وعلاقاتها الاجتماعية وقدرها»^(٢).

وتقول في صدد تجسيدها لأزمة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر: «تجسد التجديد الحقيقي الذي قامت به إدارة بوش في الاستعانة بمصادر تعذيب داخلية، مع خضوع السجناء للتعذيب على أيدي مواطنين أمريكيين في سجون تديرها الولايات المتحدة الأمريكية، أو نقلهم المباشر من خلال

(١) عقيدة الصدمة «صعود رأسمالية الكوارث» - نعومي كلاين - ترجمة نادين خوري - شركة

المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت لبنان ط الثالثة ٢٠١١م - ص ٢١

(٢) عقيدة الصدمة «صعود رأسمالية الكوارث» - نعومي كلاين - ترجمة نادين خوري - شركة

المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت لبنان ط الثالثة ٢٠١١م - ص ٦٨

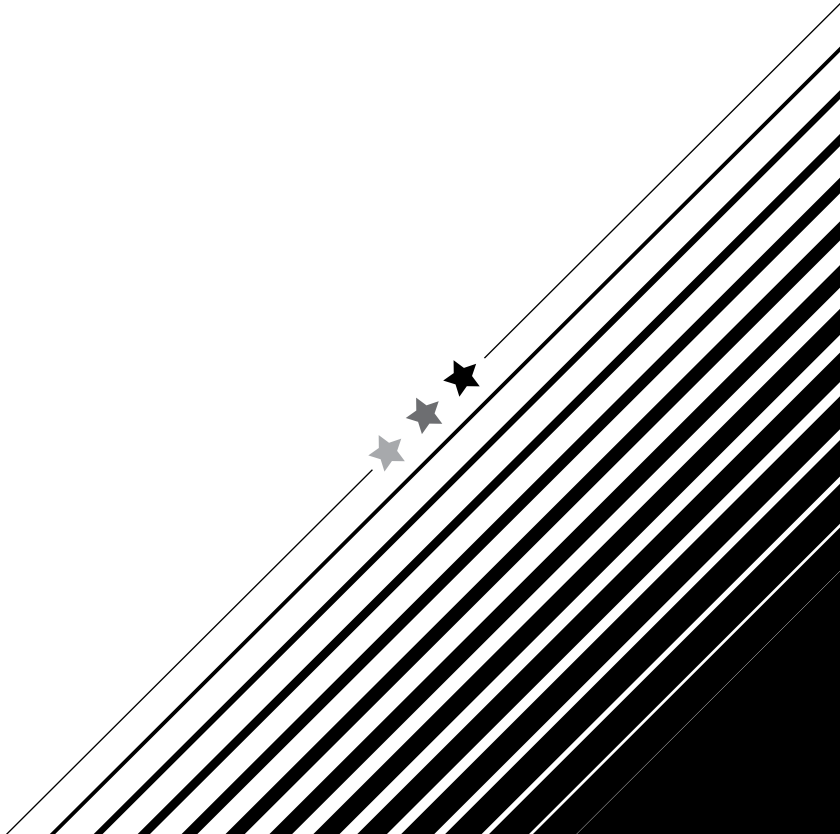


عملية نقل استثنائية إلى بلدان العالم الثالث على متن طائرات أمريكية؛ هذا ما يجعل نظام جورج بوش مختلفاً بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر حيث تجرأ النظام على المطالبة بحق التعذيب بدون حياء؛ الأمر الذي جعل الإدارة عرضة للمقاضاة الجنائية، وهي مشكلة تعاملت معها من خلال تغيير القوانين، إن سلسلة الأحداث واضحة جداً، فقد عمد وزير الدفاع دونالد رامسفيلد بتفويض من جورج بوش إلى سن قانون يعتبر السجناء المأسورين في أفغانستان غير خاضعين لاتفاقية جنيف؛ باعتبارهم مقاتلين معادين^(١).

ولا أتخيل عاقلاً يقول: إن ما ترتكبه أنظمة أوروبا وأمريكا من مجازر إنما أمر تمارسه ضد العالم الآخر الثالث، فلا ضرر منه على الشعوب الأوربية والأمريكية؛ ولا يشكل هذا السلوك من الأنظمة خطراً على شعوبها؛ ومن ثم فليس هذا الانحدار الخلفي مؤذناً بأفول الغرب، لا يقولنَّ أحدٌ مثل هذا الكلام الرخيص؛ وإلا أباح عرضه لكل الخلق ووضع نفسه في مرمى سهام التي لا تخطئ؛ فإنَّ الأخلاق لا تتجزأ وإنَّ الإجرام كذلك لا يتجزأ، فإذا كانت طبيعة الإجرام مترسخة في ضمير أمة من الأمم، ومبنية على أسس فكرية وتصورية؛ فإنه لا يمنعها من أن تصطلي بنار هذا الإجرام إلا حاجز أرق من القطمير وأدق من خيط الحرير، وهو حاجز الانشغال بالغير مع وقوع التلاقي في المصالح ضد الغير، وسقوط هذا الحاجز أكيد ووشيك، كما يجب ألا ننسى أنَّ لله سنناً في كونه يجريها بمقدار فلا تتبدل ولا تتحول.

(١) عقيدة الصدمة «صعود رأسمالية الكوارث» - نعومي كلاين - ترجمة نادين خوري - شركة

المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت لبنان ط الثالثة ٢٠١١م - ص ١٤٧

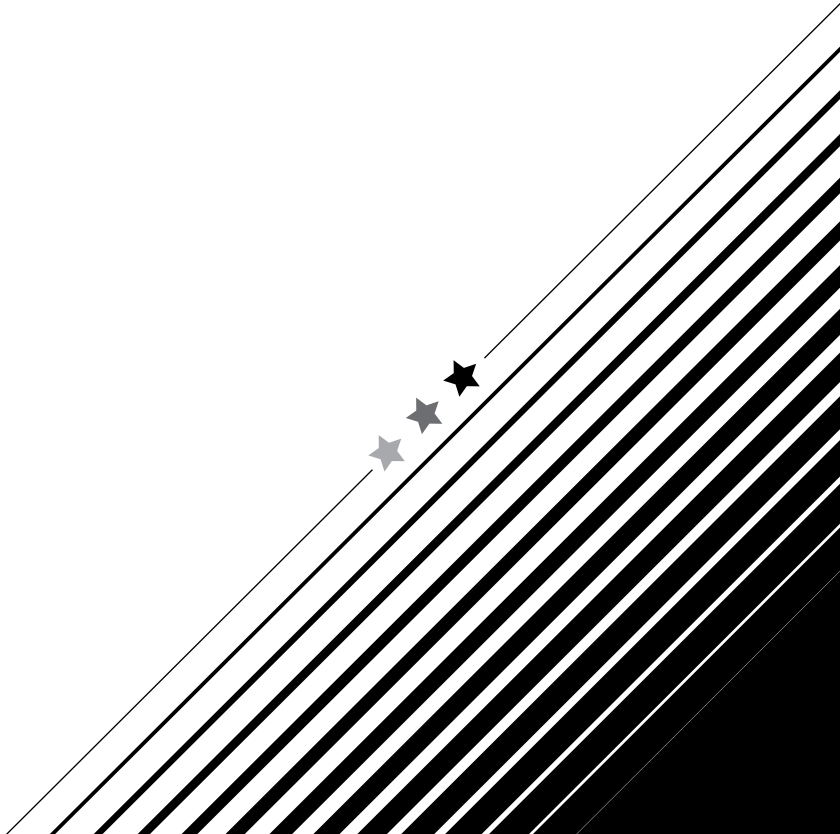


الفصل الرابع



أفول شمس القرن الأمريكي







الفصل الرابع

أقول شمس القرن الأمريكي

«هل انتهى القرن الأمريكي؟» سؤال اتخذَهُ عنوانًا لكتابه «جوزيف صمويل ناي» أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد، وصاحب المؤلفات التي شكلت مصدرا لتطوير السياسة الخارجية في عهد «بارك أوباما»، وبرغم أنه انتهى إلى نتيجة أقل تشاؤمًا رأيناه قد ضَمَّنَ كتابه حقائق واقعية ربما تثير تشاؤمًا أكثر على مستقبل أمريكا عند قُرَّائه قبل غيرهم، وفي مستهل كتابه أورد سؤالًا لأحد الخبراء: إذا كانت الإمبراطورية البريطانية قد استمرت قرنين؛ «فلماذا بدأنا بالانحدار بعد نحو خمسين سنة!»^(١).

إنَّ ما يُعزَى إليه قوة أمريكا وصمودها هو تلك المؤسسات، وذلك المنهج المؤسسي، لولاهما لخربت من زمن بعيد؛ غير أنَّ عوامل السقوط والانهيار تمخر في جسدها من يوم نشأتها، من عنصرية وطبقية، وانحلال أخلاقي وتفكك أسري، وهيمنة للرأسمالية ولمجموعات الضغط المنتفعة، وغير ذلك من الأسباب التي يسهل معها انهيار دولة مكونة من ولايات شتى وعرقيات مختلفة ومشارب ومذاهب متفاوتة.

النشأة العلمانية والمسار اللاهوتي

(١) هل انتهى القرن الأمريكي؟ - جوزيف ناي - ترجمة محمد إبراهيم العبدالله - مكتبة العبيكان -

الرياض - ط أولى ٢٠١٦ م ص ٨



بينما كان صريرُ قلمِهِ يُدَوِّي في سماء القارة الأمريكية الجديدة بهذه الكلمات المشحونة بالحماسة: «على أوروبا القديمة أن تتكىء على أكتافنا، وتسير في ركابنا بقدر ما تستطيع، مقيدةً بأسار الملوك والرهبان؛ أيّ مارِدٍ جَبَّارٍ سَنَكُونُ!»^(١) لم يكن «توماس جفرسون» يتوقع أن أمريكا سوف يقودها الملوك والرهبان الجُدُد إلى الهاوية السحيقة، ويجرون معهم القارة العجوز، التي وقعت هي الأخرى تحت سلطان اليمين المتطرف الزاحف إلى القمة بسرعة مذهلة ومخيفة.

ولقد خاض «جفرسون» الذي سطر بقلمه دستور أقوى دولةٍ حَمَلَهَا الكوكبُ الأرضيَّ وحمل آثامها معها على ظهره؛ خاض حرباً ضروساً مع رجال الدين الذين ضغطوا بكل ما لهم من ثقل في سبيل غرس أكذوبة «مملكة الرب!» في الدستور الأمريكي، وجعل السيادة في هذا الدستور لشريعة التوراة، واتهموه لأجل إعراضه عن ذلك الهوس بالهرطقة والزندقة، لكنه واصل نضاله ومعه جُلُّ الآباء المؤسسين حتى أنجزوا الدستور بعيداً عن يد دين بولس وأوغسطين^(٢).

غير أن أمر الحكم والسياسة في الواقع الأمريكي وقع بدرجات تَفَاوَتَتْ من زمن لآخر تحت تأثير الخطاب الديني البروتستانتي الكلفنيّ البيوريتانيّ

(١) الصنم .. صعود وسقوط الإمبراطورية الأمريكية - نيل فرجسون - ترجمة معين محمد إمام -

مكتبة العبيكان - الرياض - ط أولى ٢٠٠٦م ص ١١

(٢) ر: الدين في السياسة الأمريكية - فرانك لامبرت - ترجمة عبد الكريم موسى أبو البصل - مكتبة

نمو للنشر - ط ١٤٣٦هـ ص ٢٧-٢٩





الإنجيلي المتطرف، وهذا الخطاب كان ولا يزال أصولياً يلتقي ويتلاحم مع الخطاب الصهيوني إلى حدّ أنه لم يعد بالإمكان التفريق بين الصهيونية اليهودية والصهيونية الإنجيلية، ومن آثار ذلك أنّ تأثير الكنيسة المسيحية الأصولية في الرأي العام الأمريكي أدّى إلى خلق صورة خيالية عن الصراع العربي الإسرائيلي وكأنه امتداد للصراع بين داود وجالوت^(١).

وإذا كان عجباً أن يؤثر خطاب عنصريّ أهوج في شعب متمدين كالشعب الأمريكي؛ فإنّ الأعجب والأغرب أن يؤثر بصورة أعمق في الزعماء السياسيين الذين يعلنون أنهم رؤساء لدولة علمانية ديمقراطية، فهذا هو كارتر يعلن أمام الكنيست: «لقد آمن سبعة رؤساء أمريكيين وجسدوا هذا الإيمان بأن علاقات الولايات المتحدة الأمريكية مع إسرائيل هي أكثر من علاقة خاصة، بل هي علاقة فريدة؛ لأنها متجذرة في ضمير وأخلاق ودين ومعتقدات الشعب الأمريكي نفسه... لقد شكل إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية مهاجرون طليعيون ونحن نتقاسم معهم تراث التوراة»^(٢).

أمّا ريجان الذي افتتح مع «ماجريت تاتشر» عهداً جديداً من العولمة الاقتصادية النيوليبرالية فقد مزج في أصرح وأصرخ مثال للازدواجية النكدة بين هذا الانفتاح الذي قضم ظهر الإنسانية واستعبدها لحفنة من المرابين وبين الانغلاق الكهنوتيّ الذي ينذر بكارثة تقصم فقار ظهر البشرية؛ فهذا هو

(١) ر: البعد الديني في السياسة الأمريكية - د. يوسف حسن - مركز دراسات الوحدة العربية -

بيروت - ط أولى ١٩٩٠م ص ٧٦

(٢) ر: البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني - مصدر سابق ص ٧٦



يقول للإيباك: «حينما أتطلع إلى نبوءاتكم القديمة في العهد القديم وإلى العلاقات المنبئة بهمجدون أجد نفسي متسائلاً عمّا إذا كنّا نحن الجيل الذي سيرى ذلك واقعاً، ولا أدري إذا كنت قد لاحظت مؤخراً أيًا من هذه النبوءات، لكن صدقني إنها قطعاً تنطبق على زماننا الذي نعيش فيه»^(١).

هذا الصراع العميق بين التيارين الليبرالي واللاهوتي اليميني المتطرف يعمق الانقسام والاستقطاب داخل المجتمع الأمريكي، ويتجلى شيئاً فشيئاً في الأداء السياسي والتنافس الحزبي، مما سيكون له أثره البالغ على مستقبل الكيان الأمريكي ككل، والمشكلة أنّ الصراع لا يقف عند حد التنافس على السلطة، وإنما يسعى كل فريق لرسم هوية البلاد على أساس ما يعتقد، إلى هذا البعد الخطير أشار أحد المحترفين لاستطلاع الرأي العام «وليام ماك إنترف» في تصريح لـ «الواشنطن بوست» فقال: «عندنا قوتان ضخمتان تصطدمان، واحدة ريفية مسيحية محافظة دينياً، والأخرى متسامحة اجتماعياً توافق على تخيير المرأة بين الحمل وعدمه، علمانية تعيش في نيو إنجلاند وعلى شاطئ المحيط الهادئ» ولعل صعود اليمين المحافظ قد أعطى لإحدى هاتين القوتين بعداً سياسياً واسع المدى كان أقصى تجلياته متمثلاً في «الترامبية» التي لم تمت لمجرد نجاح بايدن، وبخلاف هاتين القوتين هناك اتجاهان آخران يتصارعان، اتجاه يعظم الموروث عن الآباء المؤسسين وآخر جديد طائش يتعجل نهاية العالم، وكما عبر «باتريك بوكانن» الذي عمل مستشاراً

(١) راجع: البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني مصدر سابق ص ١٧٢





لرؤساء أمريكا من نيكسون إلى ريجان: «إننا بلدان وشعبان: أمريكا قديمة تموت، وأمريكا جديدة تنال ما تستحق»^(١)، فالصراع الثقافي على الهوية صار مارداً جباراً مقلقاً؛ ولاسيما مع تعقد التركيبة الديموغرافية للمجتمع الأمريكي بسبب نشأته وحتميات الهجرة.

توابع الزلزال الأفغاني

صحيح أن الأزمة بدأت قبل الزلزال الأفغاني، وله أسباب أعمق وأقدم من صعود «الطالبان»، غير أن الخروج الأمريكي على هذا النحو المهيمن من «كابل» استثار القضية من مكنها، ومن المؤكد أن هذا الحدث - المحلي الكوني في آن - قد أكد المخاوف وسكب على وقودها زيتاً جديداً؛ لذلك وجدنا الصحف الغربية عموماً والأمريكية على وجه الخصوص يعلو موجها هادراً ومنذراً، فعلى سبيل المثال: نشرت مجلة «الإيكونوميست» مقالاً لـ «نيال فيرجسون» بعنوان: «لماذا لن تكون نهاية الإمبراطورية الأمريكية سلمية؟» ورد فيه: «قد يكون الوقت قد حان لمواجهة حقيقة - فهمها تشرشل جيداً - وهي أنه: نادراً ما تكون نهاية الإمبراطورية عملية غير مؤلمة»^(٢)، والذي يقول هذا الكلام هو «فيرغسون» أستاذ التاريخ الذي دافع كثيراً عن الإمبراطوريات، إلى حد أنه يعتبرها ضرورة حتى للأمم المستعمرة فيقول في كتابه الشهير «الصنم»: «إن تجربة معظم الدول في إفريقيا والشرق

(١) موت الغرب - باتريك جيه بوكانن - ترجمة محمد محمود التوبة - مكتبة العبيكان - الرياض -

ط ١٤٢٦هـ ص ٢٢

(٢) عن المعهد المصري - ترجمة عادل رفیق - في ٢٠ أغسطس ٢٠٢١م

الأوسط منذ عام ١٩٤٥م إضافة إلى أجزاء كبيرة من آسيا تضع إيمان «روزفلت» بالتححر من الاستعمار في غير محله»^(١).

حتى الطائر الذي حلق طويلا وغرّد كثيرا في سماء التبشير ببلوغ الإنسانية نهايتها على شواطئ الليبرالية الأمريكية «فرنسيس فوكوياما» يعكس اليوم الاتجاه الذي رسمه بإصرار وحتمية في كتابه «نهاية التاريخ» ويدخل عن طواعية واختيار سرب المغردين في الاتجاه التشاؤمي؛ فها هو يكتب في مجلة الإيكونوميست في ١٨ أغسطس ٢٠٢١م مقالا بعنوان «نهاية الهيمنة الأمريكية» ومما قال فيه: «و حقيقة الأمر أنّ نهاية العهد الأمريكي جاءت قبل ذلك بكثير؛ لكن الأسباب طويلة المدى للضعف والانحدار الأمريكي هي في الحقيقة محلية أكثر منها دولية»... «ليس من المرجح أن تستعيد الولايات المتحدة مكانتها المهيمنة السابقة، ولا ينبغي لها أن تطمح في ذلك»^(٢).

واللافت للنظر بشدة أنّ كثيرا من المنذرين بزوال الهيمنة الأمريكية بعد انسحاب أمريكا من أفغانستان يربطون - بلغة صارمة ملؤها الزعر والهلع - بين هذا الحدث وحدث الخروج السوفيتي من نفس البلد، أوردت مجلة «نيويورك» الأمريكية الأسبوعية بتاريخ ١٥ أغسطس ٢٠٢١م مقالا بعنوان: «هل يمثل الانسحاب الكبير من أفغانستان نهاية العصر الأمريكي؟» للكاتبة «روبن رايت» قالت فيه: «إنّها لنهية مشينة تضعف مكانة الولايات المتحدة

(١) الصنم «صعود وسقوط الإمبراطورية الأمريكية» - نيل فرجسون - ت: معين محمد الإمام -

مكتبة العبيكان - الرياض - ط ١٤٢٢م ص ٢٥٨

(٢) عن المعهد المصري: ترجمة: عادل رفيق - بتاريخ ٢٧ أغسطس ٢٠٢١م



في العالم وربما بشكل لا رجعة فيه» ... «إنّها ليست مجرد هزيمة ملحمة للولايات المتحدة؛ فقد يكون سقوط كابل بمثابة نهاية لعصر القوة العالمية للولايات المتحدة» ... «إنّ الانسحاب الكبير لأمريكا من أفغانستان مهين على الأقل بقدر ما كان انسحاب الاتحاد السوفيتي من هذا البلد عام ١٩٨٩م وهو الحدث الذي ساهم في نهاية امبراطوريته»^(١).

وليس الأمر مجرد تشاؤم نفسيّ وُلدته الصدمة المباغته، وإنّما هو «تشاؤم استراتيجي» مبنيّ على دراسات سابقة؛ فلولا اهتزاز ثقة المفكرين في جدوى استمرار الهيمنة الأمريكية لأسباب أقدم وأعمق من مجرد هزيمتها «مِنْ قِبَلِ تَمَرُّدٍ تَسْلِيحُهُ لا يزيد عن قذائف آربي جي وألغام أرضية وبنادق كلاشنكوف» على حدّ تعبير «ليز سلاي» الصحفية ب«الواشنطن بوست»، لولا هذا الاهتزاز في الثقة لأسباب داخلية عميقة؛ لما اندفع في الصحافة الأمريكية والعالمية هذا السيل العارم من التصريحات التشاؤمية الحادة من مفكرين ومتابعين كبار، بوزن فوكوياما الذي قال مشيراً إلى أحد أبعاد الأزمة: «فالمجتمع الأمريكي يسوده استقطاب حاد ... تَحَوَّلَ منذ ذلك الحين إلى صراع مرير حَوْلِ الهوية الثقافية».

الأسباب العميقة

وقد أوجز «جوزيف ناي» مشكلات أمريكا الداخلية والمستعصية على الحلّ، لكنّه - لكونه أقل تشاؤماً وأكثر واقعية - أدغم بها بعض عوامل

(١) السابق - ٢٦ أغسطس ٢٠٢١م



للمصمود الحضاري، فقال: «الولايات المتحدة تواجه مشكلات حقيقية في مسائل من مثل: الديون والتعليم الثانويّ وعدم تساوي الدخل والجمود السياسي، لكن يمكن أن يلاحظ أحدنا أنّها جزء من المشهد، إذ ثمة على الجانب الإيجابي من القضية مزايا الديموغرافيا والتكنولوجيا والطاقة»^(١)، غير أنّ ما ذكره من إيجابيات لا يصمد أمام تلك المشكلات لأنّ المشكلات جذرية بخلاف تلك التي يراها روافع.

وما لخصّه وأجمَله «جوزيف ناي» في ذاك الموضوع فصلّه في مواضع عديدة وبنى عليه، وفصله كذلك آخرون، ربما يجدر البدء بهم قبل العودة إلى «ناي»، يتحدث «فرجسون» عن الآثار الاقتصادية الناجمة عن السلوك الاستهلاكيّ للأمريكان - والذي يصعب تغييره ولو على المدى البعيد - فيقول: «ارتفع حجم ديون القطاع المنزلي/ الأسري من ٤٤٪ من الناتج المحلي الإجمالي في الستينيات والسبعينيات إلى ٧٨٪ عام ٢٠٠٢ م... وقد أقرت الحكومة الاتحادية في يوليو ٢٠٠٣ م بأنّ فائض الميزانية المقدر بمبلغ ٣٣٤ مليار دولار - والذي جرى توقعه قبل عامين - قد تحول - بفضل توليفة جمعت الركود والحرب وتخفيض الضرائب - إلى عجز لا يقل عن ٤٧٥ مليار دولار»^(٢)، وبعد استطراد في شرح الأزمة، يعلق قائلاً: «فمنذ

(١) هل انتهى القرن الأمريكي؟ - جوزيف ناي - ترجمة محمد إبراهيم العبدالله - مكتبة العبيكان -

الرياض - ط أولى ٢٠١٦ م ص ١٠٦-١٠٧

(٢) الصنم «صعود وسقوط الإمبراطورية الأمريكية» - نيل فرجسون - ت: معين محمد الإمام -

مكتبة العبيكان - الرياض - ط ١٤٢٢ م ص ٣٩٢





عام ١٩٨٥م تحولت الولايات المتحدة من دائن عالمي إلى أكبر مدين في العالم ... لا بد من الاعتراف بأن اعتماد أمريكا على رأس المال الأجنبي تشبه التوازن فوق جبل مشدود على علو شاهق^(١)، ثم يواصل ناعيا على المجتمع الأمريكي الطبيعة المترهلة: «الاستهلاك اعتمادا على الاقتراض، الإحجام عن الذهاب إلى جبهات القتال، النزعة لفقد الاهتمام بالمهمات والمشاريع طويلة الأمد؛ إذا كانت كل هذه السمات تستحضر صورة أمريكا في الذهن كمتهم مغرم بالجلوس وعدم مغادرة البيت، أو بتعبير أكثر فظاظة: مدمن استراتيجي للجلوس ومشاهدة التلفزيون؛ فإن الصورة تستحق التفكير والتأمل ... ويبدو أن: «عبء الرجل الأبيض محمول على كرشه»^(٢).

ويناقش فريد زكريا في كتابه «مستقبل الحرية» مشكلة الجمود السياسي ويردّها إلى طبيعة النظام؛ فيقول: «تستحوذ فكرة الانتخاب على عقل السياسي، والآن السياسيون الأمريكيون يركزون بشكل عنيد على الفوز في الانتخاب القادم، واستثناء كل شيء ما عدا ذلك، لا لأنهم بشر أسوأ من أسلافهم، ولكن لأن النظام يدفعهم في هذا الاتجاه»^(٣)، وفي سياق تفصيله لجذور الأزمة يصف الأحزاب وطبيعة عملها الذي آلت إليه: «إنّ الحزب على الأغلب تحول إلى عربة لجمع التبرعات لصالح مرشح ذي طلة

(١) الصنم «صعود وسقوط الإمبراطورية الأمريكية» مرجع سابق ص ٤٢٣

(٢) الصنم «صعود وسقوط الإمبراطورية الأمريكية» مرجع سابق ص ٤٣٠

(٣) مستقبل الحرية (الديمقراطية الضيقة الأفق في الداخل والخارج) - فريد زكريا - ت فادي أديب

تلفزيونية مميزة»^(١)، وباختصار ينقل المشهد: «أصبحت الحكومة الأمريكية في كلمات «راوخ»: «كتلة مجمدة عملاقة من البرامج المعظمة العالقة في أزمة نقدية دائمة»^(٢)، هذا بخلاف التجاوزات التي فاقت الوصف والعدّ في اختصاص السلطات بما جعل مبدأ الفصل بين السلطات كقطعة من الخردة، على حد وصف بعض المتابعين في الغرب.

وبرغم أنّ الأزمة الديموغرافية في أمريكا أقلّ من أوروبا وروسيا والصين، إلا أنّها ليست ببعيدة عنها؛ لكونها مرتبطة بالرجل الأبيض المتحضر من جهة الطبيعة الثقافية والسلوكية التي أضفتها عليه الثورة الثقافية المعاصرة، وصارت وثيقة الصلة به، يقول «بيتر فرديناند داركر» الحاصل على «الوسام الرئاسي للحرية» بأمريكا عام ٢٠٠٢م: «إنّ أهم حقيقة مفردة جديدة - ولو لم يكن ذلك إلا بسبب أنّها حقيقة ليس لها سابقة في التاريخ كله - هي انهيار نسبة الولادات في العالم المتقدم كله» وبلهجة فزعة مفزعة يقول «باتريك بوكنان»: «الغرب يموت؛ لقد توقفت أممته عن التكاثر، وتوقف سكانه عن النمو، وبدأوا بالانكماش، ولم يبق - منذ الموت الأسود الذي حصد أرواح ثلث سكان أوروبا في القرن الرابع عشر - تهديد أخطر لبقاء الحضارة الأوروبية من هذا الخطر المائل ... جميع ملل الإيمان المسيحي ممثلون في المسيرة العظيمة لموت الغرب»^(٣).

(١) السابق ص ٢٠٥

(٢) أيضا ص ١٩٣

(٣) موت الغرب - باتريك جيه بوكنان - ترجمة محمد محمود التوبة - مكتبة العبيكان - الرياض -



أمّا عن أزمة العنصرية والعصبية، والهوس اللاهوتي بنهاية العالم، الذي أفصح عن نفسه في لغة «جيمي سواغرت» و«جيرى فالول» و«هول ليندسي» وغيرهم، بل وفي خطاباتٍ سياسيةٍ لسانيةٍ من الأمريكان على مستوى رؤساء وزعماء من أمثال «ريجان»، مما أوردته كتب سيّارة مثل كتاب «النبوءة والسياسة» لـ«غريس هالسل» عن هذه الأزمة وآثارها التي يمكن أن تتفاقم مع صعود اليمين المحافظ في الغرب كله، عن هذه الأزمة الكبيرة «حدّث ولا حرج»، وأودُّ أن أسوق هنا صرخة أحد العقلاء الذين كتبوا من منطلق الحرص على الغرب كله وحضارته، يقول «ريتشارد كوك» بواقعية شديدة: «إنّ مورثات العدوان الصليبيّ المنحرف، والمدعومة بالعلم والتقنية وأقوى النظم الاقتصادية والعسكرية مزقت الغرب ومن ورائه العالم إلى أجزاء، وحين يعاد توحيد مورثات التعصب المفرق مع الأصولية الدينية؛ فإنّ هذه المورثات تبقى تهديداً قوياً للغرب، لا من الخارج فقط بل من الداخل الذي يعتبر أكثر تهديداً»^(١).

وتمّ أزمة قلّ من تحدث فيها، ولعلها تنتمي إلى ظاهرة «ترهل المارد العملاق»؛ ففي تقرير نشرته منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية عام ٢٠١٣م يقارن مهارات البالغين في عشرين دولة متقدمة تبين «أنّ ٣٦ مليون أمريكي لديهم مهارات خفيضة، وأنّ العمال الأمريكيين تم تصنيفهم في المستويات الأخيرة في مهارات الحساب والكفاءة التكنولوجية ... والطلاب الأمريكيون

(١) انتحار الغرب - ريتشارد كوك، كريس سميث - ترجمة محمد محمود التوبة - ط أولى ٢٠٠٩م

العبيكان السعودية ص ٨٨-٨٩ بتصرف بسيط



لا يبدو أنهم يحسنون من معارفهم ومهاراتهم بما يكفي لمواكبة الاقتصاد المتطور»، فإذا عدنا إلى «جوزيف ناي» وجدناه - برغم فتور الحالة التشاؤمية لديه - يحذر من الأزمة المالية - التي لا يرى لها الخبراء حلا - بهذه اللهجة المفرطة في الخوف والتخويف: «وبعد الأزمة المالية أصبح المصدر الرئيسي للمخاوف مستوى الدين الحكومي، ففي مفردات التاريخ البريطاني: «تلك هي الطريقة التي انحدرت بها الإمبراطوريات؛ بدأت بانفجار الديون»^(١).

أمّا عن أزمة التباين الفاحش بين الدخل والعوائد، تلك الأزمة التي يصعب إيقاف مداها مع تنامي الفكر النيوليبرالي واستبداد «صبية مدرسة شيكاغو» بالتنظير الاقتصادي وفرضهم لنظرية «ميلتون فريدمان» المحيائية بشدة للرأسمال على حساب اليد العاملة، ومع نفوذ «جماعات الضغط النفعية» وتسلطها على سياسات الأحزاب، عن هذه الأزمة يتحدث «توماس بيكيتي» في آخر صيحة موجهة: «يتقاضى الموظف المتوسط في شركة «وول مارت» أقل من ٢٥٠٠٠ \$ في السنة، في حين أنّ «مايكل ديوك» رئيس تلك الشركة حصل على أكثر من ٢٣ مليون دولار في ٢٠١٢م، كما أنّه في ٢٠١١م حصل «تيم كوك» من شركة «أبل» ٣٧٨ مليون دولار في شكل مرتب وأسهم ومزايا أخرى، حيث كان ذلك الرقم يعادل ٦٢٥٨ ضعف متوسط راتب الموظف في «أبل»، وهذا الاتجاه يوجد في كل مكان في عالم الأعمال»^(٢).

(١) نهاية القرن الأمريكي ل جزييف ناي .. مرجع سابق ص ٧٨

(٢) رأس المال في القرن الحادي والعشرين - توماس بيكيتي - ترجمة محمود الشاذلي - دار الثقافة

الجديدة - القاهرة - ط أولى ٢٠١٥م ص ٢٧



هذه هي الصورة التي تجليها كتب ومقالات وتصريحات وأبحاث وتقارير لمفكرين وعلماء وصحفيين ومختصين من الغرب ولاسيما أمريكا نفسها، وإذا كان هناك خلاف في درجة التشاؤم فإن الإجماع منعقد على أنّ الهيمنة الأمريكية في طريقها إلى الزوال، وإن بقيت أمريكا دولة عظمى قوية لفترة تطول أو تقصر، فبعض هؤلاء الأقل تشاؤمًا يرى أنّ الأمر سيؤول إلى اللاقضية، فبحسب تقرير لـ «راند شويلر» يقول: «فإنّ قانون توسع الكون يعني أنّ النظام في هذا العالم قد استبدل بفوضى واسعة وعلى نحو مذهل، ويبين أنّ النمط المستقبلي لن يكون قوة عظمى تصارع أو تهدن، وإنّما الكون المعلوماتي، وهو الجواب عن: ما هو التالي؟ إنّه لا أحد».

أمّا مجلس الاستخبارات القومي - الذي يعدّ التقديرات بخصوص الرئيس الأمريكي - فقد نشر أخيراً تقريراً عن عام ٢٠٣٠م يتنبأ فيه أن تبقى الولايات المتحدة الدولة العظمى الوحيدة في العالم، لكن لن تكون هناك هيمنة؛ فقد انتهت لحظة القطب الواحد، والولايات المتحدة لن تكون قوية كما كانت في الماضي، ودرجة الانحدار النسبي لن تكون كما لو أنّها نهاية العهد الأمريكي^(١).

عالم ما بعد أمريكا

«عالم ما بعد أمريكا» عبارة جذبت انتباه الرئيس الأمريكي السابق «باراك أوباما» مما دعاه لاصطحاب الكتاب المُعَنَوَن بهذه العبارة المثيرة للانتباه

(١) هل انتهى القرن الأمريكي؟ - جوزيف ناي - ترجمة محمد إبراهيم العبدالله - مكتبة العبيكان -

الرياض - ط أولى ٢٠١٦م ص ٩١-٩٢



والدهشة معاً، وقد التقطت كاميرات الإعلام صورة له وهو يحمل هذا الكتاب؛ فهل يعني هذا أن زعماء أمريكا يقرأون المستقبل بهذه الطريقة؟ هذا ما أعتقد أن مؤلف الكتاب قد نفاه عندما نقل عن أندري جروف مؤسس شركة إنتل قوله: «تواجه أمريكا خطر السير على خطأ أوروبا باتجاه الانهيار، وأسوأ ما في الأمر أن لا أحد يعلم بذلك، إنهم جميعاً يعيشون حالة من الإنكار، يُربّت بعضهم على ظهور بعض، بينما تتجه «التايتانيك» نحو جبل الجليد وبأقصى سرعتها»^(١)!

أمّا عالم الاجتماع النرويجي يوهان جالتونج، صاحب التنبؤات الصادقة، الذي يبني توقعاته على قواعد لها علاقة بالقوانين العامة التي تحكم الأمم والمجتمعات، والذي سبق أن تنبأ بأحداث كبرى ووقعت كما تنبأ، كاندلاع الثورة الإيرانية وانهيار الاتحاد السوفيتي وأحداث الحادي عشر من سبتمبر، فقد تنبأ بانهيار الهيمنة الأمريكية قبل عام ٢٠٢٥م بعد غزو أمريكا للعراق، ثم عاد ليؤكد توقعه ويقرب زمانه لدى تولى ترامب للرئاسة، ويضع له غاية هي عام ٢٠٢٠م!

ولم يقف «فريد زكريا» مؤلف الكتاب المذكور - وهو أيضاً مؤلف الكتاب الواسع الانتشار في العالم: «مستقبل الحرية الديمقراطية الضيقة الآفاق في الداخل والخارج» - لم يقف عند حدّ التنبؤ المبني على الخبرة

(١) عالم ما بعد أمريكا - فريد زكريا - ترجمة بسام شيحا - الدار العربية للعلوم ناشرون - ط أولى



والاستقراء، وإنما أفصح بلغة الأرقام المدعومة بشهادات أهل الخبرة، فينقل عن وزير الخارجية الأمريكي الأسبق «جيمس بيكر» تصريحاً أدلى به عام ١٩٩١م يشير إلى هذا المستقبل المنتظر، ويختمه بقوله: «إن العالم يتجه من الغضب إلى اللامبالاة، من العداء لأمريكا إلى ما بعد أمريكا»^(١).

وبلغة الأرقام وقراءة الواقع المائل يستطرد في البيان: «فالصين والهند تتحولان إلى لاعبين كبيرين في منطقتيهما وما ورائهما، وروسيا انتهت من مرحلة التأقلم التي تلت نهاية الاتحاد السوفيتي، وهي تزداد قوة وعدائية أيضاً، وبالرغم من أن اليابان ليست من بين القوى الصاعدة إلا أنها الآن أكثر استعداداً للإفصاح عن آرائها ومواقفها تجاه جيرانها، وأوروبا تتصرف في المسائل التجارية والاقتصادية بقوة وتصميم هائلين، وصوت البرازيل والمكسيك يسمع بقوة في قضايا أمريكا اللاتينية، أما دول جنوب أفريقيا فقد اتخذت لنفسها موقع زعيمة القارة الأفريقية؛ جميع هذه القوى تأخذ لنفسها مساحة أكبر في الساحة الدولية من المساحة التي كانت كل واحدة منها تشغلها في الماضي»^(٢).

وسواء ترجحت كفة المتشائمين أو تأكدت تنبؤات الأقل تشاؤماً؛ فإن النتيجة بالنسبة إلينا واحدة أو متقاربة؛ لأنّ المهم هو زوال الهيمنة والقطبية،

(١) عالم ما بعد أمريكا - فريد زكريا - ترجمة بسام شيحا - الدار العربية للعلوم ناشرون - ط أولى ٢٠٠٩م ص ٥٤

(٢) عالم ما بعد أمريكا - فريد زكريا - ترجمة بسام شيحا - الدار العربية للعلوم ناشرون - ط أولى ٢٠٠٩م ص ٦٢



وسواء آل الأمر إلى قطبيات متعددة بينها تنافس أو إلى اللاقطبية واللاهيمنة فإنّ الفرصة لدينا كبيرة؛ بتوفر هامش للاستقلال وفرص للحرية وسقف عال للإرادة السياسية التي يجب أن تتوجه نحو التحرر والانطلاق ولو بالتدريج، المهم هو أن تتوفر الإرادة، ولا ريب أنّ الشعوب قادرة - إن شاءت - على الضغط على حكوماتها لتغير من سياساتها تبعا للمتغير الجديد، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ولا يشوش على هذا ما نراه الآن مع تصاعد وتيرة الحرب الروسية على أوكرانيا، من صعود لنجم أمريكا، ومن استعادة لكثير من هيبتها وهيمنتها، فمن المشاهد والملاحظ بكل تأكيد أنّ أمريكا التي سكتت الزيت على نار هذه الحرب ربحت كثيرا على مستوى الممانعة الذاتية مع إضعاف الخصوم، فهذا هي الصين والهند تدخلان راغمتين تحت سلطان التهديد الأمريكي، لكنّ كل هذا لا يعني أنّ أمريكا ستفلت من المصير؛ ذلك لأنّ ما ذكرناه آنفا من الأسباب العميقة الضاربة بجذورها في الحياة الأمريكية لا يمكن تلافيه ولا توقيه بصولات حربية أو بمكاسب آنية مهما بلغت.

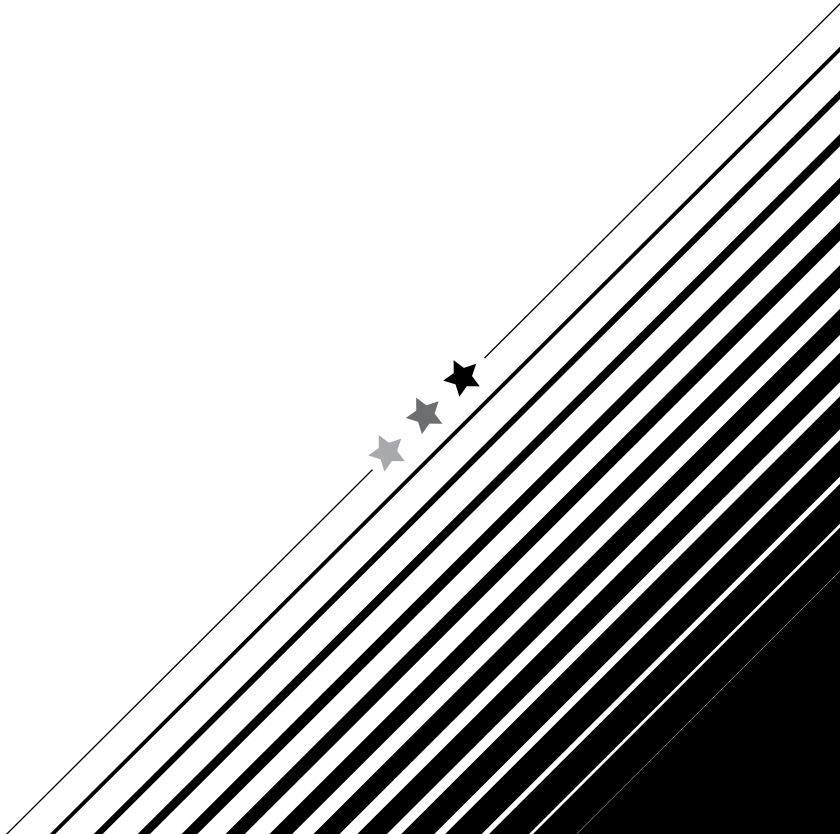
هذا بخلاف ما يتوقعه الكثيرون وهذا ما لم نذكره اختصارا من حروب أهلية قادمة في أمريكا، وقد تزداد وتيرة التوقعات إذا عاد ترامب للترشح، والحرب الأهلية المتوقعة يمكن أن تكون على خلفية مذهبية، ويمكن أن تقع مثلما وقعت من قبل بين شمال وجنوب لأسباب عنصرية، وليس هناك مانع من انفراط عقد الفيدرالية وتقاتل الولايات أو انفصال بعضها، كل هذا وارد وبقوة.

الفصل الخامس



المأزق الأبيستمولوجي







الفصل الخامس المأزق الأبيستمولوجي

لا يبدو لكثيرٍ من الناس من صور التراجع الغربي إلا تلك الظاهرة اللافتة للأنظار، وهي ظاهرة الانحسار التدريجي لهيمنة القطب الواحد، على المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية، بينما الحقيقة أنّ التراجع أعمق بكثير من كل ما يبدو طافيا على سطح الأحداث، والمفكرون في الغرب تحدثوا عن ذلك التراجع العميق، الذي يبدأ من الاختلال في التركيبة الديموغرافية ويمر بنفاد رصيد الثقة في المنتج الأنثربولوجي غير المستقر، وينتهي بذلك البعد الأكثر عمقا وأثرا، ألا وهو فقد الثقة في النظرية المعرفية الغربية (الأبيستمولوجيا)، ذلك هو التراجع الكبير الذي سيكون له بالغ الأثر في تغيرات ثقافية هائلة.

بدايةً لا يستطيع أحد أن ينكر فضل «فرنسيس بيكون» على العلم والعلماء؛ حيث قدّم المنهج التجريبي الذي يُعدُّ طفرةً كبيرة في مسيرة النهضة الأوروبية والحضارة الإنسانية بوجه عام، وإن كان علماء المسلمين من أمثال «الحسن بن الهيثم» و«جابر بن حيان» و«الرازي» قد طبقوا هذا المنهج حرفياً في بحوثهم، غير أنّ «بيكون» قَعَدَ لهذا المنهج تقعيدا يجعله ميزانا لا يكاد يخطئ؛ فلماذا - إذنً - تورط العلم الحديث في الإنكار الذي فتح الباب على مصراعيه للإلحاد حتى صار مذهبا ودينا جديدا؟!*

ولعل النقلة التي أحدثها سيكون في مناهج النظر ومن ثم في العلم على وجه العموم أنه أول غربيّ ينقلب على التراث اليونانيّ السقيم ومنهجه الأرسطيّ العقيم ويثور عليه، يقول مؤلفا «الموسوعة الفلسفية المختصرة»: «على أنّ أهم ما أسهم به سيكون في الفلسفة كان في ميدان المنهج العلميّ، فقد كان من أقوى المتمردين على التقاليد الأفلاطونية والأرسطية وأجلاهم بيانا... فلقد زعم أنّ المنطق الأرسطي غير مفيد بوصفه أداة للكشف؛ فهو يجبرنا على التسليم بنتيجته لكنه لا يكشف عن شيء جديد، ويجر التجربة من ورائه جرا كأنّها الأسير، يضاف لذلك أنّ العلل الغائية التي يستخدمها في تفسيراته قد أفسدت الفلسفة على نحو عجيب؛ ذلك أنّ هذه العلل لا تصلح إلا لتفسير الشئون الإنسانية»^(١)، ويضيفان في موضع آخر: «يرى بكون أنّ الفلاسفة العقلين «كالعناكب؛ ينسجون الأفكار من تجايف عقولهم، على أنّ التجريبيين الغلاظ ليسوا بأفضل من هؤلاء؛ لأنّهم كالنمل يجمعون المواد دونما هدف، أمّا النحل فهو يقدم لنا النموذج الصحيح لخطة السير العملية، فالنظام هو سر الأمر كله، فعلينا بتجميع الوقائع أو التاريخ الطبيعي واختزانها وتفسيرها بتبصر وفقا لقوانين محددة»^(٢).

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة - جوناثان ري و ج . أو . أرمسون - ت: فؤاد كامل وزميليه -

المركز القومي للترجمة - القاهرة - ط ٢٠١٣ م ص ١٠٩

(٢) الموسوعة الفلسفية المختصرة - جوناثان ري و ج . أو . أرمسون - ت: فؤاد كامل وزميليه -

المركز القومي للترجمة - القاهرة - ط ٢٠١٣ م ص ١٠٩



ويقول هو ذاته في «الأورجانون الجديد»: «هيهات لمبادئ تم استخلاصها بالجدل أن تعين أحدا في كشف نتائج جديدة، لأن الطبيعة أدق وأحذق من الجدل أضعافا مضاعفة»^(١)، ويضيف في موضع آخر من الأورجانون: «فانظر الآن إلى كل هذه الفلسفات اليونانية، وإلى العلوم الجزئية المتشعبة منها، ليس بوسعك أن توردها بعد انقضاء كل هذه السنين تجربة واحدة تفضي إلى التخفيف عن الإنسان وتحسين حاله»^(٢)، وقد ناقش الزعم القائل بأن منطق أرسطو كان عليه إجماع طوى به ما قبله وأخضع له ما بعده قرونا مديدة، وبين أن الكثيرين ممن افتتوا بمنطق أرسطو كانوا ضحايا المسبقات وسلطة الآخرين، ثم قال: «فلا شيء أثلج لقلوب الطغام من ذلك الذي يفتن الخيال ويوثق العقل في أغلال الآراء الشائعة» ... «إذا غمرك الدهماء بالتأييد والإعجاب فتحسس أخطائك»^(٣).

وجدير بالذكر هنا أن أكثر من واحد من علماء الإسلام سبق فرنسيس بيكون وروجر بيكون وجون ستورت مل وغيرهم في تقرير المنهج التجريبي على أنقاض المنطق الأرسطي، وقد ألف ابن تيمية كتابه «الرد على المناطقة» لهدم ذلك المنطق الفتان الذي لا قيمة له في واقع الحياة الإنسانية، إضافة إلى

- (١) الأورجانون الجديد «إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة» - فرنسيس بيكون - ترجمة د. عادل مصطفى - رؤية للنشر والتوزيع - القاهرة - طبعة أولى ٢٠١٣م ص ٢٣
- (٢) الأورجانون الجديد «إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة» - فرنسيس بيكون - ترجمة د. عادل مصطفى - رؤية للنشر والتوزيع - القاهرة - طبعة أولى ٢٠١٣م ص ٦٤-٦٥
- (٣) ر: الأورجانون الجديد «إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة» - فرنسيس بيكون - ترجمة د. عادل مصطفى - رؤية للنشر والتوزيع - القاهرة - طبعة أولى ٢٠١٣م ص ٧٨-٧٩



كتابه درء تعارض العقل والنقل، واكتشف بالدراسة المستوعبة أنّ المنطق عندما يتدخل في المعارف الفطرية التي تمثل مبادئ عقلية ضرورية فإنه لا يكون إلا تضييعاً للوقت تعذيباً للنفس، وقد قرر ذلك في أكثر من موضع، فمثلاً يقول: «والأمور الفطرية متى جُعل لها طرق غير الفطرية كانت تعذيباً للنفس بلا منفعة»^(١)، ويقول: «أن كثيراً من العلوم تكون ضرورية فطرية فإذا طلب المستدل أن يستدل عليها خفيت ورقع فيها شك، إما لما في ذلك من تطويل المقدمات وإما لما في ذلك من خفائها، وإما لما في ذلك من كلا الأمرين، والمستدل قد يعجز عن نظم دليل على ذلك، إما لعجزه عن تصويره وإما لعجزه عن التعبير عنه فإنه ليس كل ما تصوره الإنسان أمكن كل أحد أن يعبر عنه باللسان وقد يعجز المستمع عن فهمه ذلك الدليل وإن أمكن نظم الدليل وفهمه فقد يحصل العجز عن إزالة الشبهات المعارضة إما من هذا وإما من هذا وإما منهما»^(٢).

وقد اهتم كثير من الباحثين المعاصرين بهذه الظاهرة عند ابن تيمية، فهذا الدكتور علي سامي النشار يقول: «ثم يضع ابن تيمية أعظم فكرة عرفتها الإنسانية في ميدان التجربة، وإن كان قد استمدها من أصوليّ المسلمين، فيقول في نص رائع: «ذلك أنّ التجربة تحصل بنظره واعتباره وتدبره،

(١) الرد على المنطقيين - تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ابن تيمية - دار المعرفة، بيروت، لبنان - بدون ص ٢٤٩

(٢) درء تعارض العقل والنقل - تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ابن تيمية ت د. محمد رشاد سالم - ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية - ط: الثانية،



كحصول الأثر المعين دائراً مع المؤثر المعين دائماً؛ فيرى ذلك عادة مستمرة - لاسيما إن شعر بالسبب المناسب - فيضم (المناسب) إلى (الدوران) مع (السبر والتقسيم)» وهنا يقيم ابن تيمية الدوران والمناسب أصلاً للتجربة، ويضيف إليهما السبر والتقسيم^(١)، وفي موضع آخر يقرر بجرأة: «طريق العلم عند ابن تيمية ... هذا الأساس هو الحس أو التجربة، وهو بهذا يسبق ليكون ومل»^(٢).

وفي كتابه «نظرية ابن تيمية في المعرفة والوجود» يقول الباحث «يوسف سمرين»: «ابن تيمية تنبه إلى أنّ المنهج الميتافيزيقي يفصل الأشياء عن بعضها ويتغافل عن التلازم في الواقع وفق صيغ تجريدية جامدة»^(٣)، ويقول الدكتور عبد الله الدعجاني في كتابه «منهج ابن تيمية المعرفي»: «الإطار المعرفي عند ابن تيمية مكون من ثلاثة مفاهيم: الفطرة المعرفية - الواقعية المعرفية - الوحدة المعرفية، هذه المفاهيم منسجمة مع الطبيعة المعرفية الإنسانية، التي تكون في عاقبتها عندما يتوافر فيها التمايز والترابط والانسجام الكلي، وما دامت الشريعة متسقة مع فطرة الإنسان فإنّها ستبقى وحدها القادرة على

- (١) مناهج البحث عند مفكري الإسلام - د. علي سامي النشار - دار النهضة العربية - بيروت - ط ١٩٨٤م ص ٢٠٩
- (٢) مناهج البحث عند مفكري الإسلام - د. علي سامي النشار - دار النهضة العربية - بيروت - ط ١٩٨٤م ص ٢٢٦
- (٣) نظرية ابن تيمية في المعرفة والوجود - يوسف سمرين - مكر الفكر العربي - الرياض - ط ١٤٤١هـ ص ٤٦٥

إمداده بالكليات الداعمة لهذا الإطار^(١)، ومن تتبع أقوال ابن تيمية في دينك الكتابين وفي مجموع الفتاوى ومنهاج السنة تبين له أن الرجل يخط منهجا في الفكر ويؤسس لنظرية في المعرفة جديدة وإسلامية.

كلا؛ لم تكن الأزمة قط في المنهج التجريبي ولن تكون؛ لأنه منهج قرآني قبل أن يكشفه فرنسيس بيكون، فالله تعالى هو الذي وجه الناس هذا التوجيه: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (العنكبوت: ٢٠)، إلا أن هذا المنهج لا ينفرد بتفسير الكون والحياة والوجود، وإنما لا بد من اتصال السلسلة الدلالية، فكما أنه في الابتداء يعتمد على الاستقراء فلا بد في الانتهاء من ذهابه إلى ما وراء نتائج التجربة عن طريق الاستدلال، «بالبرهان الذي يبدأ من قضايا يُسَلَّمُ العقل بها وينطلق منها إلى قضايا أخرى تنتج عنها بالضرورة، دون الالتجاء إلى التجربة»^(٢)، فإن المعرفة المباشرة التي تتحصل من التجربة والحس واستقراء الظواهر المحسوسة ليست آخر النتائج العلمية ولا نهاية سلسلة الحقائق، وإنما، كما يقرر «كارل بوبر»: «إن الإدراك الحسي هو معرفة مباشرة نستطيع بواسطتها تبرير معرفتنا غير المباشرة»^(٣).

(١) ر: منهج ابن تيمية المعرفي - د. عبد الله بن نافع الدعجاني - دار تكوين - الخبر - السعودية - ط

أولى ٢٠١٤م ص ٥٩ وما بعدها

(٢) مناهج البحث العلمي - د. عبد الرحمن بدوي - وكالة المطبوعات - الكويت - ط ثالثة

١٩٧٧م ص ٨٢

(٣) منطق البحث العلمي - كارل بوبر - ترجمة د. محمد البغدادي - مركز دراسات الوحدة العربية

- ط ١٠ لسنة ١٩٩٤ ص ١٢٤



ولعل شبخ الكنيسة بطغيانها وجبروتها الذي اعتمدت فيه على أوهام وخرافات نسبتها إلى الميتافيزيقا هو الذي دفع العلماء دفعا للاعتصام بالتجربة الحسية، والوقوف عند نتائجها المحسوسة، دون محاولة الولوج إلى ما وراء هذا الكون؛ لذلك نجد عالما بوزن «آرثر كيث» يقول بلا مواربة: «إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق الخاص المباشر، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه»^(١)! وهذا ليس له تفسير إلا الهروب من شبخ الكنيسة التي كانت تمارس العسف باسم الدين.

وربما كان الفيلسوف الكبير «إيمانويل كانط» على وعي مبكر بنتائج الافتتان بالمنهج التجريبي؛ عندما أكد في أكثر من موضع في كتابه «نقد العقل المحض» أن «الأفهوم» العقلي يقع في كثير من الأحيان خارج «الأمبيري» أي بدون التوقف على التجربة القائمة على الحواس، يقول «مراد هوفمان»: «أثبت «إيمانويل كانط» في كتابه «نقد العقل الخالص» أن قدرات الإنسان الحسية محدودة؛ فلا يمكن لمجهوداتنا الحسية أن تزودنا بمعرفة يمكن الوثوق بها لحقيقة غير حسية، مثل معرفة الله... وفي كتابه «نقد العقل العملي» أشار إلى أن البشر وهبوا طبيعة تجعلهم لا يستقيمون أخلاقياً إلا بافتراض وجود إله... لكن للأسف استنتج بعض الناس من فلسفته أنه «ربما لا يكون هناك إله»^(٢).

(١) ر: الإسلام يتحدى - وحيد الدين خان - ترجمة د. ظفر الدين خان - مكتبة الرسالة - بدوت ط ٣٦ ص

(٢) خواء الذات والأدمغة المستعمرة - د. مراد هوفمان - ترجمة عادل المعلم - مكتبة الشروق

الدولية - مصر - ط ثانية ٢٠١١ م ص ٣١-٣٢

وهذه نُقول عن كانط تؤكد ما ذهب إليه هوفمان، يقول: «يجب عليك - إذن - مُرغمًا بالضرورة ذاتها التي يلزمك بها هذا الأفهوم أن تُقرَّ بأن مَقَرَّ هذا الأفهوم القَبَلِيّ (أي المفهوم الأولي الذي يسبق التجربة) هو في قدرتك المعرفية»^(١)، ويضيف: «إنَّ بعض المعارف تخرج حتى عن حقل جميع التجارب الممكنة... وفي هذه المعارف التي تتخطى العالم الحسي وحيث لا يمكن للتجربة أن تُعدَّل أو تُصحَّح تقع مباحث عقلنا التي نعدها من حيث الهدف النهائي أفضل أهمية وأسمى بكثير من كل ما قد تفيدنا به الفاهمة في حقل الظاهرات، ومشكلات العقل المحض هذه التي لا مفر منها هي الله والحرية والخلود»^(٢)، وفي موضع آخر من كتابه يقول: «لفظ الأفهوم العقلي يُظهِرُ لنا مسبقاً أنَّه لا يمكن أن ينحصر في حدود التجربة، لأنَّه يعود إلى معرفة ليست كل المعرفة الأمبيرية (أي التي تتحصل عبر الحواس كالتجربة واستقراء الظواهر) سوى جزء منها، إنَّها معرفة لا يمكن أن تبلغها تماماً أي تجربة متحققة»^(٣).

والواقع أنَّ المنهج التجريبيّ وحده لا يكفي لاكتمال سلسلة الحقائق، وأنَّ التعويل عليه وحده والاكتفاء به دون غيره لم يكن سوى مسألة هروب

(١) نقد العقل المحض - إيمانويل كانط - ترجمة موسى وهبة - مركز الإنماء القومي - بيروت -

لبنان - بدون ط ط ص ٤٧

(٢) نقد العقل المحض - إيمانويل كانط - ترجمة موسى وهبة - مركز الإنماء القومي - بيروت -

لبنان - بدون ط ط ص ٤٧

(٣) نقد العقل المحض - إيمانويل كانط - ترجمة موسى وهبة - مركز الإنماء القومي - بيروت -

لبنان - بدون ط ط ص ١٩٣



من الدين، ويمثل لذلك وحيد الدين خان، فيقول: «والعلم الحديث لا يدعي ولا يستطيع أن يدعي أن الحقيقة محصورة فيما علمناه بالتجربة المباشرة، فالحقيقة أن الماء سائل، ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننا، ولكنّ الواقع أن كل جزيء من الماء يشتمل على ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأوكسجين، وليس من الممكن أن نلاحظ هذه الحقيقة العلمية ولو أتينا بأقوى ميكروسكوب في العالم، غير أنها تثبت لدى العلماء»^(١).

وهذا نتاج الحداثة التي قضت بتجاوز الإله، وبهذا المسلك المنحرف أَوْقَعَت الحداثة العلمَ الحديثَ في فَخٍّ «الخرافة العلمية» أكثر من مرة؛ بسبب تنكرها لما وراء الكون، وتجاهلها لربوبية الله تعالى، كان من أبرز هذه الخرافات خرافة النشوء والارتقاء، تلك التي جاءت في اعترافات عالم الأنتروبولوجيا الأمريكي «لورين إيزلي» بهذا الوضوح: «بعد أن أمضى العلماء عصوراً طويلة يعيرون على رجال الدين اعتقادهم بالمعجزات والغيبات، وجد العلماء أنفسهم في وضع لا يحسدون عليه؛ فاضطروا إلى اختراع خرافتهم الخاصة بهم»^(٢)، تلك الخرافة التي فُتِنَ بها الخلقُ زمناً طويلاً - ولا يزالون - أثبت العلم الحديث نفسه استحالتها، وذلك من وجهين، الأول: عدم وفاء الأحافير بما يثبت اتصال السلسلة التطورية

(١) الإسلام يتحدى - وحيد الدين خان - ترجمة د. ظفر الدين خان - مكتبة الرسالة - بدوت ط ٤١ ص

(٢) خرافة التطور - روبرت جيمس غالغي - ترجمة فداء ياسر الجندي - دار الوعي للنشر - السعودية - ط أولى ١٤٣٦ هـ ص ١٣



المزعومة، وهذا أمر قد صرح به كثير من العلماء الطبيعيين، منهم «آرشي كار» يقول: «من الأمور المحبطة في سجل الأحافير لتاريخ الفقاريات أن ما بينها من معلومات عن تطور الزواحف في غاية الندرة»، الثاني: استحالة تخلق خلية حية أو حتى جزيء بروتين بطريق الصدفة، هذا ما أثبتته كثير من العلماء المتخصصين.

فهذا «تشارلز يوجين» يقوم بحساب احتمالية الخلق بالصدفة لجزيء واحد من البروتين ويقرر أن خلق مثل هذا الجزيء قد يستغرق ١٠٢٤٣ بليون سنة؛ ووفقا لذلك لا يوجد إمكانية أن تكون الحياة قد نشأت صدفة خلال ٥, ٤ بلايين سنة عمر الأرض، وهذا «كريستيان دو دوف» يقول: «إذا حسبنا فرصة ولادة خلية بكتيرية واحدة وهي أبسط أنواع الخلايا بسبب تجمع ذراتها المكونة عشوائيا فإنَّ الأبدية لا تكفي لخلق تلك الخلية المفردة»^(١).

إنَّ ما قدمناه لم يكن سوى نموذجٍ للغرور العلميِّ والافتتان بالمنهج التجريبي والنظرة المادية المحضمة للكون والحياة والأحياء، تلك النظرة التي بدأ العقل الغربيُّ ينأى عنها شيئاً فشيئاً، يقول «إيدموند ج بورن»: «الكثيرون اليوم أصبحت لهم رؤية للبشرية وللكون وللعلاقة بينهما مختلفة تمام الاختلاف عن الرؤية المادية السابقة، رؤية تقوم على النظر للكون على أنه كون واع يتميز بالتنظيم الذاتي والتماسك والقصدية، وعلى النظر للواقع على

(١) خرافة التطور - روبرت جيمس غالغي - ترجمة فداء ياسر الجندي - دار الوعي للنشر -



أنَّ له أبعادًا تتجاوز الحدود المادية الفيزيقية»^(١)، أمَّا مراد هوفمان فقد ذهب إلى أبعد من ذلك عندما قرر أنَّ ما وراء الطبيعة لا يمكن الاهتداء إليه بدون الوحي الإلهي: «إنَّ أكثر ما يثير انتباهنا هذه الأيام هو إدراكنا المثير للأسف بأنَّ إخضاع القضايا الميتافيزيقية لمنهج تفسير منطقي لن ينتهي بنا إلا إلى نتائج لا منطقية، والحقيقة أنَّ هؤلاء الرواد من الفلاسفة لم يبرهنوا إلا على مسألة واحدة فقط، وهي أننا لا نستطيع من خلال منطقتنا الإنسانيَّ أن نصل إلى إدراك حقيقة المجهول بشكل يقينيّ... لولا الوحي لظللنا عميانا»^(٢).

ولا سبيل إلى تجاهل الأسئلة الكبرى التي لم يستطع العلم أن يجيب عليها؛ لأنَّه - بحسب الطيب بو عزة - «الإنسان لا يستطيع أن يعيش في الوجود دون أن يستفهم عن معناه، ويفكر في مدلوله»؛ ولذلك نجزم بأنَّ العالم في اتجاه التراجع عن الحتميات الأبيستولوجية التي تبنَّتها الحداثة، وسيكون للثقافة شأن آخر يفسح للإسلام طريقًا للولوج إلى عمق التركيبة الثقافية الغربية، ولاسيما مع الإفلاس الشديد من الفكر الإنساني البديل»^(٣).

(١) ر: التغير العالمي من أجل بشرية أكثر إنسانية - إيدموند . ج . بورن - ترجمة سماح خالد زهران

- المركز القومي للترجمة - مصر - ط ٢٠١٥م - الهيئة العامة للطباعة الأميرية ص ٩٩-١٠٠ وبسطها وشرحها في فصول ثمانية بعدها

(٢) يوميات ألماني مسلم - مراد هوفمان - ت. د. عباس رشدي - مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة - ط أولى ١٩٩٣م ص ٤٦-٤٧

(٣) في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة - نقد التمركز الأوربي - الطيب بو عزة - مركز نماء لبحوث والدراسات - بيروت - لبنان - ص ٢٩-٣٠



وعندما يصل الأمر إلى هذا الحدّ الذي يصوره هوفمان مستعينا بأقوال مفكري العصر: «صار الميل للأدرية سمة مميزة لما بعد الحداثة، مع هجرة إلى العاطفة كما يعبر (هنري أتلان) وبدلاً من محاولة إيجاد طريقة للخروج من المأزق المعرفي اتجهوا إلى الحكمة الشرقية في تراث بوزا وكنفوشيوس، ليتمسوا فيها نسبية يائسة، صاروا يخجلون من الحديث عن: الحقيقة .. الصدق .. العقل .. الموضوعية، إلا في شكل استشهادات مذعورة كما تعبر (سوزان هالك) واعتبرت الحقيقة العظمى رواية خيالية عظيمة»^(١)، عندما يبلغ الأمر هذا الحدّ فإنّ من يقول إنّ الغرب في مأزق أبيضتمولوجي لا يكون قد أبعده النجعة أو ركب من الشطط شرفاً ناشزاً.



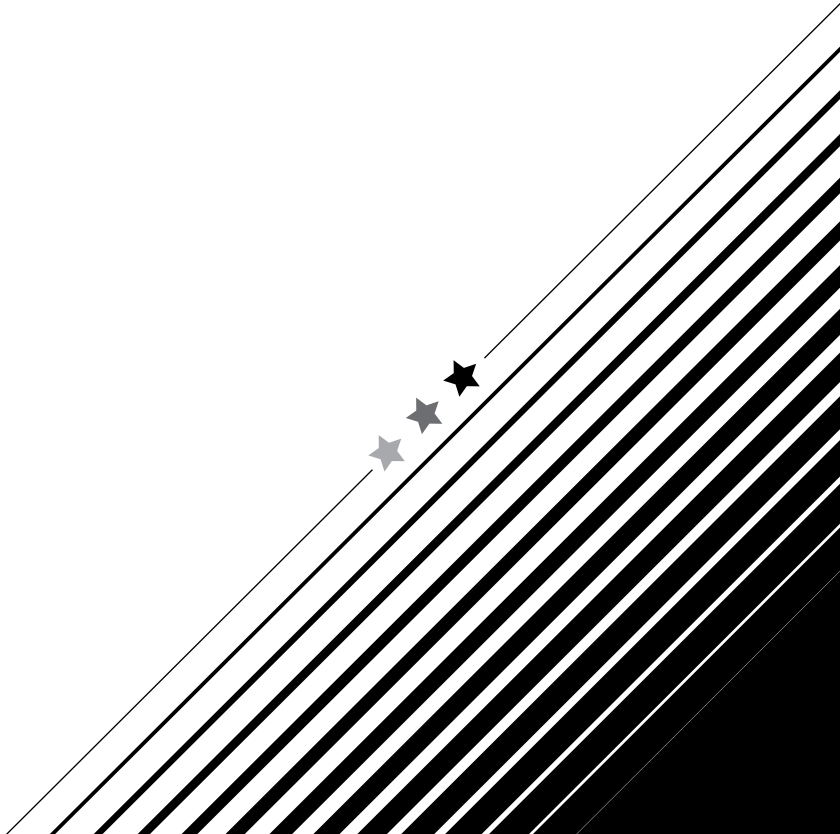
(١) ر: خواء الذات والأدمغة المستعمرة - د. مراد هوفمان - ترجمة عادل المعلم - مكتبة الشروق

الدولية - مصر - ط ثانية ٢٠١١ م ص ٥٩



الخاتمة







الخاتمة

لم أتحدث عن كثير من الأسباب الأخرى الضاربة بجذورها في أعماق التربة الغربية، واكتفيت على وجه الإيجاز بأبرزها، فلم أتحدث - مثلا - عن الرعب الديموغرافي الذي ربما كان أحد أسباب صعود اليمين المتطرف في كثير من دول أوروبا، والذي يتحدث عنه مفكر بحجم «باتريك بوكنان» بهذه الطريقة المشحونة بالفرع: «الغرب يموت؛ لقد توقفت أممه عن التكاثر، وتوقف سكانه عن النمو وبدأوا بالانكماش، ولم يبق منذ الموت الأسود الذي حصد أرواح ثلث سكان أوروبا في القرن الرابع عشر تهديد أخطر لبقاء الحضارة الأوروبية من هذا الخطر المائل ... جميع ملل الإيمان المسيحي ممثلون في المسيرة العظيمة لموت الغرب»^(١)، وتحدث عنها التايمز اللندنية بهذه الطريقة الانهيارية: «الأوروبيون أنواع تتلاشى» ويتحدث عنه المفكر الكبير «بيتر أف دركر»: «إنَّ أهم حقيقة مفردة جديدة - ولو لم يكن ذلك إلا بسبب أنها حقيقة ليس لها سابقة في التاريخ كله - هي انهيار نسبة الولادات في العالم المتقدم كله».

ولم أتحدث كذلك عن الهجرة العكسية للقطعان البشرية في الغرب، الهجرة العكسية إلى المذهبية الدينية التي مزقت أوروبا خلال القرون التي

(١) موت الغرب - باتريك جيه بوكنان - ترجمة محمد محمود التوبة - مكتبة العبيكان - الرياض -



تلت عصر النهضة، كتلك الحروب الدينية التي طحنت الأمم الأوروبية مع بداية انتشار البروستانتينية وانحسار الكاثوليكية، يقول ريتشارد كوك وزميله: «وهناك نص فرعيّ أشدّ ظلّمة، وهو يكمن في الحماسة التبشيرية والتطرف الثوريّ المورث للغرب والعالم من المسيحيين الأوائل، إنّ مورثات العدوان الصليبيّ المنحرف، والمدعومة بالعلم والتقنية وأقوى النظم الاقتصادية والعسكرية التي شوهدت في أيّ وقت قد قوت الغرب بقوة شديدة وأدت في القرن التاسع عشر للهيمنة على العالم، وفي النصف الأول من القرن العشرين مزقت هذه المورثات المنحرفة الغرب تقريباً ومن ورائه العالم إلى أجزاء، وحين يعاد توحيد مورثات التعصب المفرق مع الأصولية الدينية؛ فإنّ هذه المورثات تبقى تهديداً قوياً للغرب، لا من الخارج فقط بل من الداخل الذي يعتبر أكثر تهديداً»^(١)، وعندما يقع هذا - ولاسيما مع صعود اليمين المتطرف - فسيأكل الأخضر واليابس، ولن يشفع لهم أنّهم أبناء ملة واحدة؛ فقد رأينا بالأمس ما الذي جرى بينهم، وما نحن نرى اليوم على الساحة الأوكرانية بداية العودة لما كان بالأمس، ويبدو أنّ ما قرره المؤرخ الشهير «غوستاف لوبون» صحيحٌ عندما قال: «وقد أثبتت هذه الثورات أنّ عدم التسامح بين المعتقدات المتقاربة يكون أشدّ مما بين أنصار المعتقدات المتباعدة»^(٢)، وستعود السنة الإلهية للنشاط بعد التآني: ﴿وَمَنْ أَلَّزِمَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا

(١) انتحار الغرب - ريتشارد كوك، كريس سميث - ترجمة محمد محمود التوبة - ط أولى ٢٠٠٩م

العبيكان السعودية ص ٨٨-٨٩

(٢) روح الثورات والثورة الفرنسية - غوستاف لوبون - ترجمة عادل زيتير - مؤسسة هنداي -

القاهرة - بدون تاريخ ص ٣٤



مِثْقَهُمْ فَتَسُؤُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ [المائدة: ١٤].

ولم أتحدث عن العنصرية الممزوجة بهوس نهاية الكرة الأرضية، وهما صفتان متلازمتان في الغرب أجمع على وجه العموم، وفي أمريكا على وجه الخصوص، ليس أدلّ على ذلك من حدث كهذا: «في سبعينيات القرن المنصرم صدر كتاب لـ«هول ليندسي» بعنوان «نهاية أعظم كرة أرضية» بيع منه ١٨ مليون نسخة وظل على مدى السبعينيات يحتل المركز الأول في مبيعات الكتب بأمريكا، هذا الكتاب يؤصل بنصوص توراتية لنظرية نهاية العالم في معركة هرمجدون، ومن قراء هذا الكتاب الرئيس الأمريكي ريجان»^(١)، وعندما يسكب على هذا المكون الفكريّ زيتا من الترامبية فإنّه لكي يحرق لهيبه الأخضر واليابس لن يحتاج إلا عود ثقاب من الأحداث التي إن سلمت منها أمريكا مرات فلن تسلم منها أبد الدهر.

لكنني أحب أن أختتم بالتنبيه على أهمية ضبط المنهجية التي يجب اتباعها في عملية الاستغراب، فلا يصح أن نساق وراء النماذج التي فُتنت بالغرب، أو التي تحاول أن تُخضع الثقافة الشرقية لهيمنة الغرب، فذلك تغريب وليس استغرابا، والتغريب حركة تتماهى مع الاستشراق، كما يجب أن نضبط معايير التقييم للحضارة المعاصرة بكل معطياتها ومحتوياتها، وجميع هذه المعايير

(١) راجع: النبوءة والسياسة - جريس هالسل - ترجمة محمد السماك - دار الشروق - القاهرة - ط

ترد إلى معيار كليّ رئيسيّ هو معيار الشرع والميزان؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهذا عام في كل كتاب وكل ميزان نزل من السماء، وقال سبحانه في القرآن خاصة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، أي رقيباً وحاكماً؛ يصدق ما جاء فيها من الحق ويكشف ما طرأ عليها من تحريف وتصحيف، وقال في شأن الأمة التي أوتيت الكتاب المهيم والميزان العدل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ فالدراسات الاستغرابية يجب أن تتخذ الشرع والميزان دون غيرهما معياراً لتقويم الحضارة الغربية، ولتقويم كل منتج بشري في أي زمان أو مكان.

وإذا كان اتخاذ الشرع والميزان معياراً للتقويم هو الأساس الأول من الأسس الحاكمة لعملية الاستغراب، فإن العدل والقسط هو المعيار الثاني بلا أدنى شك؛ فالشرع الذي نتخذه معياراً للتقويم هو الذي لقننا ذلك، وحتّم علينا أن نعدل في الحكم على الأفكار والمذاهب وعلى أصحابها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَقْلَمْتُمْ قَاعِدِلْوَ لَوْ كُنْتُمْ دَاقِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال عزّ وجل: ﴿بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، أمّا الأساس الثالث فهو الموضوعية، وعدم الاشتغال بالأمر الهامشية، ومن تأمل قصص القرآن ولاحظ التركيز على



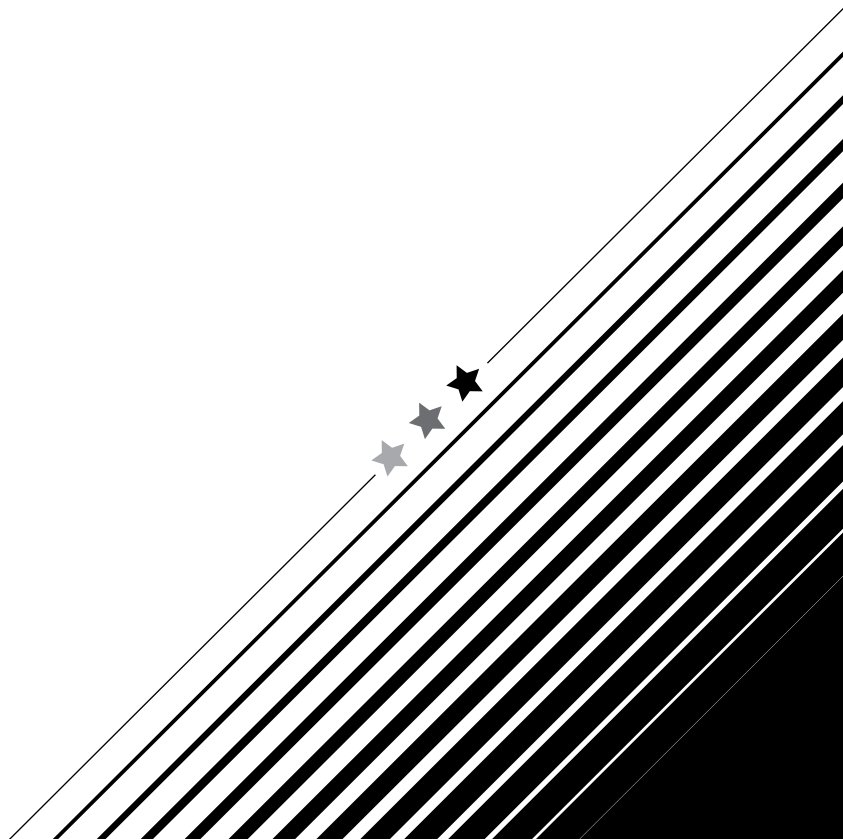
الموضوعات والتخطي الظاهر للأسئلة الصغيرة؛ علم كم هي عظيمة ومفيدة ومجدية هذه الطريقة الرشيدة التي تتوخى الموضوعية، ومن الأسس كذلك الاستقصاء والذهاب إلى الجذور؛ لالتماس العبرة، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١١]، فالسير في الأرض استقصاءً واستقراءً، والنظر لاستكناه الكيف ذهاب إلى الجذور وعبور إلى الدرس المستفاد، ومنها الانطلاق من الوظيفة التي نالت بها هذه الأمة الخيرية، وهي تعميم رسالة الإسلام لكافة الناس: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، فهذه الأمة أخرجها الله للناس، وابتعثها فيهم؛ ليخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ولا ريب أن هذا المنطلق سيكون له الأثر الكبير في استقامة هذا العلم.

ولنكن على يقين من وعد الله تعالى لهذه الأمة بالتمكين والاستخلاف، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

وفي الأخير أشكر جامعة سيرت الموقرة على هذا العمل الكبير، وفق الله الجميع لكل خير، وتقبل الله منا ومن كل من ساهم في هذا العمل.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨) **وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ** (١٩)

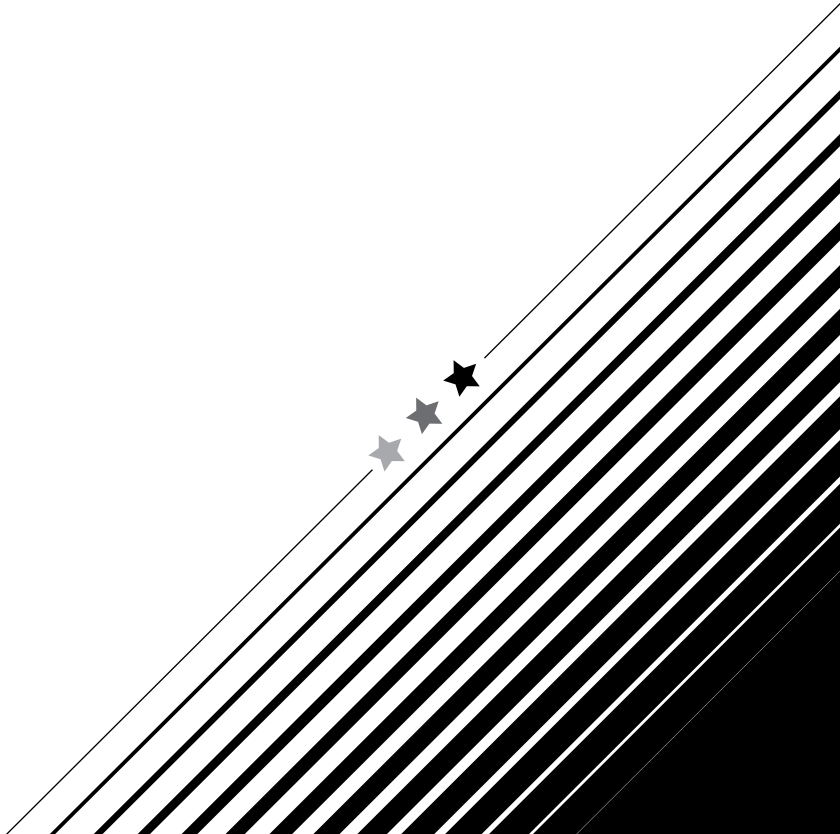
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢٠)





ثبت المراجع







ثبت المراجع

- أسس الفكر السياسي الحديث (عصر النهضة) الجزء الأول - كوينتن سكر - ت: د. حيدر حاج إسماعيل - المنظمة العربية للترجمة - توزيع مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - لبنان - ط أولى ٢٠١٢ م
- الإسلام بين الشرق والغرب - علي عزت بيغوفيتش - ترجمة محمد يوسف عدس - دار النشر للجامعات مصر - مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام - ط ثانية ١٩٩٧ م
- الإسلام على مفترق الطرق - محمد أسد - ترجمة عمر فروخ - دار العلم للملايين - بيروت - ط ١٩٨٧ م
- الإسلام في الألفية الثالثة ديانة في صعود - د. مراد هوفمان - ترجمة: عادل المعلم وزميله - مكتبة الشروق - القاهرة - ط ت بدون
- الإسلام كبديل - د. مراد هوفمان - ترجمة: عادل المعلم - دار الشروق - القاهرة - ط أولى ١٩٩٧ م
- الإسلام يتحدى - وحيد الدين خان - ترجمة د. ظفر الدين خان - مكتبة الرسالة - بدوت ط ت
- إعادة التفكير في الحداثة - جيرمندر ك بامبرا - ترجمة ابتسام علام وحنان حافظ - المركز القومي للترجمة - ط أولى ٢٠١٦ م -



- الاغتيال الاقتصادي للأمم - جون بيركنز - ترجمة مصطفى الطناني -
الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٤م
- أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها - غرين بالاست - الدار العربية
للعلوم - ترجمة مركز التعريب والبرمجة - ط أولى ٢٠٠٤م
- اقتصاد يغدق فقرا - هورست أفهيلد - ترجمة د. عدنان عباس علي -
عالم المعرفة ٣٣٥ - الكويت - ط ٢٠٠٧م
- الأناركية والثورة والإنسان - سيندي ميلستين وديفيد جريبر - ترجمة
أحمد حسان - مركز المحروسة - مصر - ط أولى ٢٠١٦م
- انتحار الغرب - ريتشارد كوك ، كريس سميث - ترجمة محمد محمود
التوبة - ط أولى ٢٠٠٩م العبيكان السعودية
- الأورجانون الجديد «إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة» - فرانسيس
بيكون - ترجمة د. عادل مصطفى - رؤية للنشر والتوزيع - القاهرة - طبعة
أولى ٢٠١٣م
- البعد الديني في السياسة الأمريكية - د. يوسف حسن - مركز دراسات
الوحدة العربية - بيروت - ط أولى ١٩٩٠م
- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى - فشر - ت محمد مصطفى زيادة وزميله
- ط السادسة - دار المعارف - مصر





- تأملات في ثورات العصر - هارولد لاسكي - ترجمة عبد الكريم أحمد - دار القلم القاهرة مصر - بدون
- تطور الفكر السياسي لجورج سباين ترجمة جلال العروسي ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٠ م ج ١
- التغير العالمي من أجل بشرية أكثر إنسانية - إيدموند ج. بورن - ترجمة سماح خالد زهران - المركز القومي للترجمة - مصر - ط ٢٠١٥ م - الهيئة العامة للمطابع الاميرية
- الحرية - خمس مقالات عن الحرية - إيزايا برلين - ترجمة يزن الحاج - دار التنوير للنشر القاهرة - ط اولى ٢٠١٥ م
- الحرية والثقافة - جون ديوي - ترجمة أمين مرسي قنديل - مطبعة التحرير - مصر - ط ٢٠٠٣ م
- خرافة التطور - روبرت جيمس غالغي - ترجمة فداء ياسر الجندي - دار الوعي للنشر - السعودية - ط أولى ١٤٣٦ هـ
- خواء الذات والأدمغة المستعمرة - د. مراد هوفمان - ترجمة عادل المعلم - مكتبة الشروق الدولية - مصر - ط ثانية ٢٠١١ م
- درء تعارض العقل والنقل - تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية ت د. محمد رشاد سالم - ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية - ط: الثانية، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م



- الدولة المستحيلة - الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي - وائل حلاق - ت عمرو عثمان - المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
- الديمقراطية ونقادها - روبرت دال - ترجمة نمير عباس مظفر - دار الفارس - عمان الأردن - ط ٢٠٠٥م
- الدين في السياسة الأمريكية - فرانك لامبرت - ترجمة عبد الكريم موسى أبو البصل - مكتبة نمو للنشر - ط ١٤٣٦هـ
- رأس المال في القرن الحادي والعشرين - توماس بيكيتي - ت محمود الشاذلي - دار الثقافة الجديدة - القاهرة - ط ٢٠١٥م
- الرأسمالية الطاغية - روبرت برنارد رايش - ت: علاء أحمد صلاح - الدار الدولية للاستثمارات الثقافية - القاهرة - بدون
- الرأسمالية والحرية - ميلتون فريدمان - ترجمة مروة شحاتة - كلمات العربية للترجمة والنشر - ط أولى ٢٠١١م
- الرد على المنطقيين - تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ابن تيمية - دار المعرفة، بيروت، لبنان - بدون
- روح الإرهاب - جان بودريار - ترجمة بدر الدين عمرو زكي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مكتبة الأسرة - ط ٢٠١٠م





• روح الثورات والثورة الفرنسية - غوستاف لوبون - ترجمة عادل زعيتير -
مؤسسة هنداوي - القاهرة - بدون

• السيطرة الصامتة - الرأسمالية العالمية وموت الديمقراطية - نورينا
هيرتس - ترجمة صدقي خطاب - عالم المعرفة عدد ٣٣٦ - ط ٢٠٠٧ م

• سيكولوجية الجماهير - غوستاف لوبون - ترجمة هاشم صالح - دار
الساقي - ط أولى ١٩٩١ م

• صدام الحضارات .. إعادة صنع النظام العالمي - صمويل هنتنجتون

- ت: طلعت الشايب - ط ثانية ١٩٩٩ م الأعوام المائة القادمة - جورج

فريدمان - ترجمة منذر محمود محمد - دار الفرقد - دمشق - ط أولى

٢٠١٩ م

• صناعة الجوع «خرافة الندرة» - تأليف: فرنسيس مورلابيه و جوزيف

كولينز - ترجمة: أحمد إحسان - عالم المعرفة رقم ٦٤ ط ١٩٨٣ م

• الصنم «صعود وسقوط الإمبراطورية الأمريكية» - نيل فرجسون - ت:

معين محمد الإمام - مكتبة العبيكان - الرياض - ط ١٤٢٢ م

• عالم ما بعد أمريكا - فريد زكريا - ترجمة بسام شيحا - الدار العربية

للعلوم ناشرون - ط أولى ٢٠٠٩ م



• عقيدة الصدمة «صعود رأسمالية الكوارث» - نعومي كلاين - ترجمة نادين خوري - شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت لبنان ط الثالثة ٢٠١١م

• الغرب والإسلام .. الدين والفكر السياسي في التاريخ العالمي - أنتوني بلاك - ت د. فؤاد عبد المطلب - المجلس الوطني للثقافة - الكويت - ط ٢٠١٢م

• فح العولمة .. الاعتداء على الديموقراطية والرفاهية - تأليف: (هانس بيتر مارتين ، هارالد شومان) - ترجمة: د. عدنان عباس علي - كتاب «عالم المعرفة» عدد ٢٣٨ سنة ١٩٩٠م

• فضل الإسلام على الحضارة الغربية «تأثير الإسلام في أوروبا خلال العصر الوسيط» - مونتجومري وات - ترجمة حسين أحمد أمين - دار الشروق بيروت لبنان - ط ١٩٨٣م

• في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة - نقد التمركز الأوربي - الطيب بو عزة - مركز نماء لبحوث والدراسات - بيروت - لبنان - بدون

• قصة الحضارة - ول ديورانت (ويليام جيمس ديورانت) ت: د. زكي نجيب محمود وآخرين - دار الجيل، بيروت - لبنان - ط: ١٩٨٨م

• كراهية الديمقراطية - جاك رانسيير - ترجمة أحمد حسان - دار التنوير القاهرة بيروت تونس - ط أولى ٢٠١٢م





- اللاهوت السياسي - كارل شميت - ت رانية الساحلي وزميلها - المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات - قطر - ط أولى ٢٠١٨ م
- ما الديمقراطية؟ - ألان تورين - ترجمة عبود كاسوحة - منشورات وزارة الثقافة - سوريا - دمشق - ط ٢٠٠٠ م
- ماذا يريد العم سام؟ - نعوم تشومسكي - ترجمة عادل المعلم - دار الشروق - القاهرة - مصر - ط أولى ١٩٩٨ م
- المثقفون - بول جونسون - ترجمة طلعت الشايب - ط أولى ١٩٩٨ م دار شقيقات - القاهرة -
- المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة - برتراند رسل - ترجمة عبد الكريم أحمد - ط مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - بدون تاريخ
- مدخل إلى علم السياسة - موريس دو فرجيه - ت: سامي الدروبي وجمال الأتاسي - دار دمشق - القاهرة - بدون تاريخ -
- مستقبل الحرية (الديمقراطية الضيقة الآفاق في الداخل والخارج) - فريد زكريا - ت فادي أديب - ط أولى - دار مجالات - بيروت - بدون
- المصطنع والاصطناع - جان بودريار - ترجمة جوزيف عبد الله - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - ط أولى ٢٠٠٨ م



- معالم تاريخ الإنسانية - ٥. ج. ويلز - المجلد ٣ - ترجمة عبد العزيز جاويد
- الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة - بدون تاريخ
- مقدمة ابن خلدون - ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون - دار
يعرب - دمشق - ط أولى ٢٠٠٤ م
- مناهج البحث العلمي - د. عبد الرحمن بدوي - وكالة المطبوعات -
الكويت - ط الثالثة ١٩٧٧ م
- مناهج البحث عند مفكري الإسلام - د. علي سامي النشار - دار النهضة
العربية - بيروت - ط ١٩٨٤ م
- منطق البحث العلمي - كارل بوبر - ترجمة د. محمد البغدادى - مركز
دراسات الوحدة العربية - ط ١٠ لسنة ١٩٩٤
- منهج ابن تيمية المعرفي - د. عبد الله بن نافع الدعجاني - دار تكوين -
الخبر - السعودية - ط أولى ٢٠١٤ م
- موت الغرب - باتريك جيه بوكانن - ترجمة محمد محمود التوبة - مكتبة
العبيكان - الرياض - ط ١٤٢٦ هـ
- الموسوعة الفلسفية المختصرة - جوناثان ري و ج . أو . أرمسون - ت:
فؤاد كامل وزميليه - المركز القومي للترجمة - القاهرة - ط ٢٠١٣ م





• نظرية ابن تيمية في المعرفة والوجود - يوسف سميرين - مكر الفكر العربي
- الرياض - ط ١٤٤١هـ

• نقد الحداثة - ألان تورين - ترجمة أنور مغيث - المجلس الأعلى للثقافة
- مصر - ١٩٩٧م

• نقد العقل المحض - إيمانويل كانط - ترجمة موسى وهبة - مركز الإنماء
القومي - بيروت - لبنان - بدون

• نقد الليبرالية - د. الطيب بو عزة - مجلة البيان - الرياض - ط أولى
٢٠٠٩م

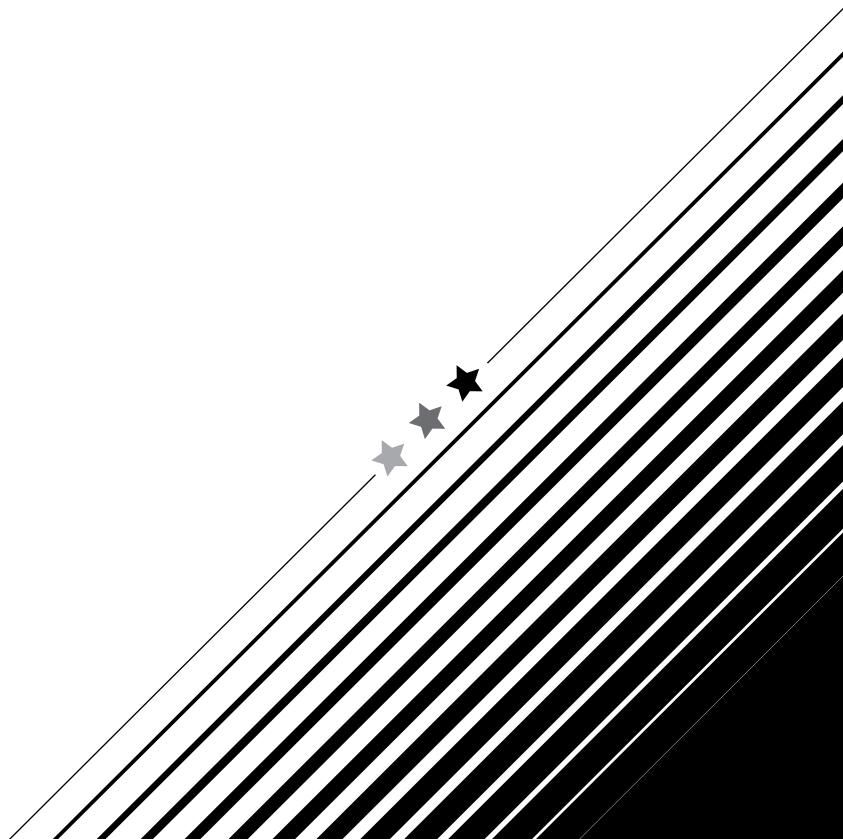


• النبوءة والسياسة - غريس هالسل - ترجمة محمد السماك - دار الشروق
- القاهرة - ط ثانية ٢٠٠٣م

• هل انتهى القرن الأمريكي؟ - جوزيف ناي - ترجمة محمد إبراهيم
العبدالله - مكتبة العبيكان - الرياض - ط أولى ٢٠١٦م

• يوميات ألماني مسلم - مراد هوفمان - ت. د. عباس رشدي - مركز الأهرام
للترجمة والنشر - القاهرة - ط أولى ١٩٩٣م.







فهرس الموضوعات

٥	المقدمة
١٣	الفصل الأول
١٣	استبداد الرأسمالية وتراجع الديمقراطية
٢٩	الفصل الثاني
٢٩	التربة العقدية والفكرية النكدة
٤١	الفصل الثالث
٤١	البعد الأخلاقي والإنساني والاجتماعي
٥٠	أخلاق القوة
٦١	الفصل الرابع
٦١	أفول شمس القرن الأمريكي
٦١	النشأة العلمانية والمسار اللاهوتي
٦٥	توابع الزلزال الأفغاني
٦٧	الأسباب العميقة
٧٣	عالم ما بعد أمريكا
٧٩	الفصل الخامس
٧٩	المأزق الأبيستمولوجي
٩١	الخاتمة
٩٩	ثبت المراجع

د. عطية عدلان



- أستاذ الفقه وأصوله بجامعة المدينة العالمية بماليزيا سابقا
وجامعة سيبريت بتركيا سابقا.
- خبير في فقه السياسة الشرعية وكاتب إسلامي وعضو البرلمان
المصري سابقا.

- من مؤلفاته: الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، والنظرية العامة لنظام الحكم في
الإسلام، وموسوعة القواعد الفقهية المنظمة للمعاملات المالية، وإحياء فقه
الجهاد، والاورجانون الإسلامي.

أُفولُ الحضارة المعاصرة

رؤية مستقبليّة بأقلام غربية

أفول الغرب.. موت الغرب.. انهيار الغرب: قضية تثار بأقلام شتى،
اختلفت في منطلقاتها وفي مقاصدها، فهل بالإمكان الاستفادة بما
كتبه كبار العلماء والمفكرين في الغرب لرسم صورة صادقة وواقعية؟

هذا هو ما يرمي إليه الكتاب، ولا ريب أننا بحاجة إلى الوقوف على حقائق
كثيرة تتعلق بالحضارة المعاصرة: لأننا -شئنا أم أبينا- قادمون على أحداث
جسام وتحولات عظام، ونأمل أن يتحقق لأمتنا ما وعدها الحق تبارك
وتعالى به من الاستخلاف والتمكين، وقد ابتعد الكتاب تمامًا عن النزعة
العاطفية، واعتمد الاستقراء والاستقصاء لأقوال العقلاء وشهادة
البلغاء، ثم تصنيفها وتوزيعها على محاور تمثل في مجموعها الأسباب
الواقعية لقرب زوال الحضارة المعاصرة: تحقيقًا للسنة الإلهية: (وتلك
الأيام نداولها بين الناس).

isbn 978-625-6257-27-6



9 786256 257276

مكتبة الأسرة العربية

صيارك الأفضل للتعرفه الاصله
طباعة ونشر وتوزيع
إصدارات مختارة للأسرة العربية

UFTK nesriyat

BASIN - YAYIN - DAĞITIM



www.ArabFamilyBs.com

+90 212 631 81 09

+90 555 028 11 55

info@arabfamilybs.com

